فاتح القسطنطينية
محمد الفاتح

فاتح القسطنطينية
محمد الفاتح
أعظم سلاطين الدولة العثمانية

د. سمير إمام أبوشرف

اسم الكتاب / فاتح القسطنطينية
إعداد وتقديم /د. سمير إمام أبوشرف
رقم الإيداع / 2016 - 171402
الترقيم الدولي / 1 - 035 - 355 - 977 - 978
تصميم الغلاف / محمد زهران
الناشر / مكتبة زهران
بالاشتراك مع / دار الراوي

«حسناً عن قريب سيكون لى
فى القسطنطينية عرش
أو يكون لى فيها قبر»

السلطان محمد الفاتح
قبل فتح القسطنطينية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

وبعد..

إن أعمار الرجال لا تقاس بالسنين وإنما تقاس بمنجزات صنعوها وأعمال خالدة تركوها وأبراج علم شيدوها ومواطن عزة رفعوها وقد وجدت فئة من هذه الرجال نقشوا أسماءهم بحروف من نور فى سجل التاريخ، فهم لكل الأمم ولكل الأجيال، وقد حفل التاريخ الإسلامى بالكثير من هؤلاء الرجال ومنهم السلطان محمد الفاتح الذى كان ولم يزل أسطورة فى الشجاعة تناقلتها كل الأجيال من الأجداد إلى الآباء إلى الأبناء.

وقد أمرنا الله تعالى بأخذ العبرة من قصص السابقين لأن التمكين فى الأرض والنصر يحتاج إلى تطبيق السنن الربانية التى تقود الأمة إلى النصر.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف: 111].

لذا كانت سيرة محمد الفاتح ضرورة للأجيال القادمة.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

(1)

لماذا

السلطان محمد الفاتح؟!

لماذا

السلطان محمد الفاتح؟!

لقد تعرض العثمانيون ومنهم السلطان محمد الفاتح إلى تشويه الصورة فى أطراف كثيرة وكل ذلك بسبب فتح القسطنطينية التى بشر رسول الله -ﷺ- بفتحها ومن ذار الذى فتحها غير السلطان محمد الفاتحم الذى وضع خطة غاية فى دهاء التدبير وروعة فى الإعداد العسكرى ودقة فى التنفيذ وذلك يوم حمل السفن برّا على جذوع الشجر ثم دحرجها وأنزلها إلى البحر خلف البيزنطيين من حيث لا يتوقعون مما أدى إلى دحر أسطولهم وهزيمتهم، وفتح القسطنطينية التى أصبحت فيما بعد عاصمة الخلافة وحملت اسم اسلامبول أو استانبول.

وبقى سؤال للمؤرخين العرب والمسلمين.. لماذا نحاول طمس تاريخ مثل هذا السلطان العظيم محمد الفاتح الذى أمضى أيامه ولياليه فى خيام الجهاد وعلى صهوات الجياد ولم يعرف طعم النور أو الراحة فى المدن والقصور ولهذا كان إصدارنا عن الفاتح العظيم السلطان محمد الفاتح.

ولد السلطان محمد الفاتح فى 27 من رجب عام 835 هـ الموافق

30 مارس 1432م ونشأ فى كنف أبيه السلطان مراد الثانى سابع سلاطين الدولة العثمانية الذى تعهده بالرعاية والتعليم ليكون جديراً بالسلطنة والنهوض بمسئولياتها فأتم حفظ القرآن وقرأ الحديث وتعلم الفقه ودرس الرياضيات والفلك وأمور الحرب إلى جانب ذلك تعلم العربية والفارسية واللاتينية واليونانية واشترك مع أبيه السلطان مراد فى حروبه وغزواته ثم عهد إليه أبوه بإمارة «مغنيـ ا. وهو صغير السن ليتدرب على إدارة شئون الدولة وتدبير أمورها تحت إشراف مجموعة من كبار علماء عصره مثل الشيخ «آق شمس الدين» و«الملا الكورانى»، وهو ما أثر فى تكوين شخصية الأمير الصغير وبناء اتجاهاته الفكرية والثقافية بناءً إسلاميّاً صحيحاً.

ونجح الشيخ آق شمس الدين فى أن يبث فى روح الأمير محمد الثانى حب الجهاد والتطلع إلى معالى الأمور وأن يُلمح له بأنه المقصود ببشارة النبى -ﷺ- فشب طامع النفس عالى الهمة موفور الثقافة رهيف الحس والشعور أديباً شاعراً فضلاً عن إلمامه بشؤون الحرب والسياسة.

* تولى محمد الفاتح السلطنة بعد وفاة أبيه فى (5 من المحرم 855هـ الموافق 7 من فبراير 1451م) وبدأ حياته فى التجهيز لفتح القسطنطينية ليحقق الحلم الذى كان يراوده وليكون هو محل البشارة النبوية وفى الوقت نفسه يسهل لدولته الفتية الفتوحات فى منطقة البلقان ويجعل بلاده متصلة لا يفصلها عدو يتربص بها.

* ومن أبرز ما استعد له لهذا الفتح العظيم أن صب مدافع عملاقة لم تعرفها أوروبا من قبل وقام ببناء سفن جديدة فى بحر مرمرة لكى يتسيد الطريق «طريق الدردنيل» كما شيَّد على الجانب الأوروبى من «البوسفور» قلعة كبيرة عُرفت باسم قلعة «ردملى حصار» لتتحكم فى مضيق البوسفور.

- لقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، وكذلك فى مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته فى الإدارة وميادين القتال حتى إنه اشتهر أخيراً فى التاريخ بلقب محمد الفاتح لفتحه القسطنطينية.

لأنه استطاع إعادة تشكيل العالم في زمانه

سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين وتحقق النصر للسلطان العثماني محمد الثاني، ودخل المدينة من باب القديس رومانوس.

كان سقوطها أهم أحداث القرن الخامس عشر الميلادي، بل ويعتبر ذلك الحدث، نهاية العصور الوسطي في أوروبا، وبداية للعصر الحديث، والقسطنطينية كانت عاصمة الدولة البيزنطية.

لقد تأثر الغرب بنبأ هذا الفتح، وانتاب النصاري شعور بالفزع والألم والخزي، وتجسم لهم خطر جيوش الإسلام القادمة من اسطنبول، وبذل الشعراء والأدباء ما في وسعهم لتأجيج نار الحقد وبراكين الغضب في نفوس النصاري ضد المسلمين، وعقد الأمراء

والملوك اجتماعات طويلة ومستمرة تنادي النصاري إلـي نبذ الخلافات والحزازات وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثرًا بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدولة الإيطالية وتشجيعها علي قتال المسلمين، وترأس مؤتمرًا عقد في روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها علي التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وأوشك هذا الحلف أن يتم إلا أن الموت عاجل البابا بسبب الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين والتي تسببت في همه وحزنه فمات كمدًا في 25 مارس سنة 1455م.

حاول البابا بيوس الثاني دفع السلطان العثماني إلـي اعتناق المسيحية وكان البابا ساذجًا إلي درجة أنه اعتقد أنه يمكنه تحويل السلطان من عقيدة التوحيد المحمدية إلي العقيدة المسيحية بمجرد دعوة السلطان ذلك، إلا أن تلك المحاولة انتهت بموت زعيمها البابا.

أما آثار هذا الفتح علي العالم الإسلامى فقد عم الفرح والابتهاج في ربوع آسيا وإفريقيا لهذا الفتح الإسلامي العظيم الذي حقق حلم المسلمين.

أرسل السلطان إلي حكام بلاد الإسلام يخبرهم نبأ هذا الفتح حتي هلل المسلمون، وكبروا وأذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت وعلقت علي الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة.

يقول ابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في هذه الواقعة:

فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباي أمير آخور ثاني رسولاً إلي ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح.

وندع المؤرخ أبا المحاسن بن تغري بردي يصف شعور الناس وحالهم في القاهرة عندما وصل إليها وفد الفاتح ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال: قلت ولله الحمد والمنة علي هذا الفتح العظيم وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء إسطنبول وطلع بهما إلي السلطان (سلطان مصر)، وهما من أهل القسطنطينية وهي الكنيسة العظيمة بإسطنبول، فسرَّ السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة بسبب ذلك أيامًا ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلي القلعة في يوم الاثنين خامس وعشرين شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة.

وقد احتفل الناس بزينة الحوانيت والأماكن وأمعنوا في ذلك إلي الغاية وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل.

وهذا الذي ذكره ابن تغري بردي من وصف احتفال الناس وأفراحهم في القاهرة بفتح القسطنطينية ما هو إلا صورة لنظائر لها قامت في البلاد الإسلامية الأخري. وقد بعث السلطان محمد الفاتح برسائل الفتح إلي سلطان مصر وشاه إيران وشريف مكة وأمير القرمان، كما بعث بمثل هذه الرسائل إلي الأمراء المسيحيين المجاورين له في المورة والأفلاق والمجر والبوسنة وصربيا وألبانيا وإلي جميع أطراف مملكته.

نشأة الدولة العثمانية
حتى عصر السلطان محمد الفاتح
أعظم سلاطين الدولة العثمانية

(2)

نشأة الدولة العثمانية

كان السلطان محمد بن مراد الثانى الملقب بمحمد الفاتح سابع سلاطين الدولة العثمانية وأعظمهم على الإطلاق لذا كان لابد من إلقاء نظرة ونبذة مختصرة عن تلك الدولة العثمانية وكيف نشأت إلى أن وصل السلطان محمد الفاتح إلى الحكم من خلال السطور التالية..

لم تكن نشأة الدولة العثمانية قديمة قدم الزمان، بل هى دولة مستحدثة نشأت بعد حوالى 1200 سنة من الميلاد وقبل ذلك التاريخ لم يكن هناك ما يسمى بالدولة العثمانية ولم يكن قد ظهر العثمانيون قبل ذلك التاريخ.

لقد بدأت نشأة الدولة العثمانية فى فترة كان الإسلام يلاقى فيها هزائم عسكرية متعددة، فقد استطاع هولاكو خان، حفيد جنكيز خان السفاح المغولى، الاستيلاء على بغداد، والقضاء على الدولة العباسية، التى كانت رمزاً لمجد قديم وملك وارف الظلال، ودخل المغول بغداد مخربين مدمرين، وجعلوا حاضرة الإسلام ومدينة المنصور وعاصمة العباسيين خراباً، وكان ذلك فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.

وفى الوقت الذى كانت فيه قوى الإسلام تنحل وتتساقط وتوشك على الانهيار فى الشرقين الأدنى والأوسط، كانت قوى الإسلام الغربية فى الأندلس تتلاشى أيضاً رويداً رويداً أمام قوات الفرنجة الزاحفة، وهكذا نجد الشعوب الإسلامية مهددة بخطرين عظيمين من الناحيتين الشرقية والغربية، من ناحية التتار القادمين من شرق آسيا، الذين حطموا أمامهم الحضارة الإسلامية الزاهرة وأبادوا الكثير من المسلمين، ومن ناحية الصليبيين فى أوروبا.

ولحسن حظ الإسلام والإنسانية وحسن حظ محمد الفاتح أن خصميه العنيدين فى ذلك الوقت لم يتفقا، لأن كلاهما كان يهدف إلى تدمير ديار الإسلام بطريقته الخاصة، فالمغول كانوا يبغون السلطة والسيطرة على شعوب الأرض مهما كانت الحضارة والتراث والديانة، على عكس نصارى أوروبا الذين كانت معاولهم تستهدف الإسلام والعقيدة الإسلامية وتريد أن تنال منهما.

وفى هذه الفترة التاريخية القائمة من تاريخ الإسلام ظهرت قوى فتية ذات حيوية فائقة، وأخذت تعمل على إعادة مجده من جديد، وتستضيف الشاردين من العلماء والأدباء، والجند الفارين، والقبائل الهائمة على وجهها. هذه القوى الجديدة هى: قوة الأتراك السلاجقة، وقوة مصر الإسلامية المملوكية، وقوة المغرب الأقصى، وكانت أقوى هذه القوات وأكثرها اندفاعاً وشباباً قوة الأتراك السلاجقة فى الأناضول.

جدد الأتراك شباب الإسلام بما قدموه من قوة بشرية هائلة

بعد أن أكسبوها حيوية جديدة، وأصبحوا حرباً على الدولة البيزنطية، يقتطعون منها بين الحين والحين جزءاً من أراضيها، حتى أصبحوا مالكين لآسيا الصغرى، مقيمين فيها، قريبين من العاصمة القسطنطينية. واستطاع الفرع السلجوقى التركى الذى حكم آسيا الصغرى مدة ثلاثة قرون، بشجاعته ومهارته السياسية، أن يوقع الهزائم بالإمبراطور البيزنطى، إلى أن هبطت إلى تلك البلاد قبيلة تركية أخرى فارة من أمام قوات التتار، وتفرعت من هذه القبيلة مجموعة صغيرة تمكنت بعد فترة قصيرة من الزمن من إنشاء الدولة العثمانية.

مَنْ هم العثمانيون؟!

العثمانيون هم أبناء قبيلة «قايى خان» من قبائل غز الخزر، بدأت تتحرك شطر الغرب عندما زحف المغول تحت قيادة جنكيز خان، واجتاحوا إيران فى بداية القرن السابع الهجرى.

وكلما زحف المغول شطر الغرب وابتعد الترك عنهم وشرعوا يتقدمون إلى ديار الإسلام، وفى جملتهم قبيلة «قايى خان» برئاسة سليمان شاه. وقد قدمت هذه القبيلة إلى كرمان، وشاركت السلطان جلال الدين منكبرتى الخوازمشاه حروبه ضد المغول، وعندما دارت الدائرة على الخوارزمشاه وتفرقت أجناده ولَّى سليمان شاه وجهه شطر كردستان، ثم رحل عنها إلى أرزنجان حيث المراعى الخضراء والبعد عن مسارح القتال، ولبث سليمان شاه وقومه فى مقرهم الجديد سنين عديدة حتى بلغه موت جنكيز خان، وظن أن الخطر المغولى قد زال والبلاء قد انقشع، وساوره الحنين إلى العودة إلى موطنه السابق بقبيلته التى كان عددها زهاء خمسمائة ألف نسمة.

وهكذا رأى سليمان شاه أن يعود برجاله إلى نجاد فى آسيا الوسطى بعد سكون العاصفة المغولية، وارتحال أمرائهم إلى «قره قورم» عاصمتهم لمبايعة من يخلف جنكيز فى زعامة المغول، لكنه

غرق عند مخاضة على نهر الفرات قرب حلب عند قلعة جعبر عام 629 هجرية (1231م) قبل أن يبلغ غايته، ولا يزال قبره هناك معروف باسم «ترك مزارى» أى مزار الترك.

أولاد سليمان شاه

والظاهر أن أولاد سليمان شاه لم يكونوا كلهم على رأى والدهم فى الرحلة إلى خراسان ومنها إلى نجاد التركستان بأواسط آسيا، لأنهم لم يلبثوا أن انقسموا عقب موته، فأصر أكبر أولاد سليمان ومعه ثانى إخوته على مواصلة السير إلى غاية أبيهم، فتبعهم أكثر العشائر، فى حين استدار «أرطغرل» وأخوه الأصغر «ديندار» بمن آثر البقاء معهما من الأسر التركية التى لم تكن تعدو الأربعمائة، واتجهوا جميعاً إلى بلاد آسيا الصغرى من جديد. وبينما هم سائرون على مقربة من حدود دولة سلاجقة الروم وقع نظرهم على جيشين متلاحمين غير متكافئين يقتتلان، فانضم أرطغرل برجاله إلى الجيش الذى كاد ينهزم، فانتصر بهم على جيش من المغول بقيادة «أوكتاى بن جنكيز خان» الذى عهد إليه إتمام فتح آسيا الصغرى. وكافأ علاء الدين السلجوقى سلطان «قونيه» منجده أرطغرل بإعطائه أرضاً واسعة، وبالغ فى البذل له اعترافاً منه بحسن بلائه ضد أعدائه فجعله أميراً على مقاطعة «اسكى شهر» ولقبه بـ«سلطان أونى» أى مقدمة السلطان، واتخذ الأمير الجديد «الهلال» - شارة سيده السلجوقى - شعاراً له على أعلامه وبيارقه، وهو الرسم الذى لا يزال تخفق به رايات الترك وبعض الدول الإسلامية حتى اليوم.

مولد عثمان بن أرطغرل

وفى عام 656هـ (1258 م) ولد لارطغرل ابن هو عثمان الذى تنتسب إليه الدولة العثمانية، وعندما انتزع عثمان فى صباه قلعة «قره جه حصار»، وما حولها من الدولة البيزنطية كافأه سلطان قونيه علاء الدين الثالث السلجوقى على ذلك بأن رقّاه إلى مرتبة الأمراء، وأرسل له لواءً أبيض وآلات الموسيقى ومنشوراً بإمارته.

عثمان شاه يواصل تقدمه

وبينما كان عثمان شاه يواصل تقدمه فى القسم الشمالى من آسيا الصغرى داخل الحدود البيزنطية ويقسم فتوحاته على أولاده وقومه، إذ تقدم المغول بقيادة غازان خان إلى آسيا الصغرى من جديد وكان ذلك فى سنة 699 هجرية (1300م)، فاضطر آخر سلاطين سلاجقة الروم هناك إلى أن يلجأ إلى الإمبراطور البيزنطى هرباً من وجههم، لكنه غدر به وقتله، فكانت فرصة مواتية لعثمان استقل فيها بإمارته، ولم يلبث هو وأبناؤه أن ضموا إلى مملكتهم الإمارات التركية الأخرى التى قامت فى آسيا الصغرى بعد الغزو المغولى، وصار سكانها جميعاً يعرفون بالعثمانيين، وضرب عثمان السكة (النقود) باسمه، وأجرى الخطبة له، وتسلم من حميه الشيخ «أذ بالى» شيخ

الطرق الصوفية منطقة الجهاد بوصفه مجاهداً فى سبيل الله، واتخذ من «بنى شهر» -أى المدينة الجديدة- عاصمة له وسمى نفسه «بادشاه آل عثمان» أى سلطان العثمانيين، وصار من رسوم وعادات السلاطين العثمانيين باستانبول فيما بعد أن يتقلدوا سيف عثمان من قبل أمام جامع أبى أيوب الأنصارى حيث تتم البيعة لهم.

بادشاه آل عثمان يؤسسون الإمبراطورية العثمانية

وأخذ عثمان ينظم أملاكه ويوسع من نطاقها، حتى بلغت فتوحاته البحر الأسود وبحر مرمرة، وجعل يقتطع الأراضى البيزنطية حتى لم يبق أمامه غير مدينة «بروسكا» وهى التى فتحها قبل وفاته ابنه «اورخان» بعد حصار طويل، فصارت حاضرة الدولة وثوى فيها عثمان فى مقبرة فخمة بعد وفاته. وسرعان ما شيِّد فى بروسه منشآت إسلامية رائعة، وصارت قبلة لجميع الأتراك القادمين من نجاد آسيا الوسطي، وامتاز عصر عثمان بأنه جعل المسلمين من أهها ومن الترك أمة واحدة، كذلك دخل مع الترك عناصر مختلفة وشعوب متباينة من الإغريق والمجريين والبلغار والألبانيين والصقالبة، وجعل من هؤلاء وأولئك أمة واحدة تمتاز بالقوة، وأصبح اسم عثمان لها رمزاً وشعاراً.

وهكذا بدأت الدولة العثمانية أو الإمبراطورية العثمانية التى أسسها عثمان شاه أو بادشاه عثمان أى سلطان العثمانيين.

أحفاد عثمان يواصلون المسيرة

أورخان ثم مراد الأول ثم بايزيد الأول

وكما أنشأ عثمان الشعب العثمانى، جعل ابنه أورخان (761 - 726هـ) (1326-1359م) من ذلك الشعب دولة تقوم على أسس إدارية وحربية وطيدة الأركان. وانتقل الجيش العثمانى من نظام قبلى إلى نظام حربى ممتاز، فأصبحوا أكبر قوة فى آسيا الصغرى، وصاروا أعظم دولة فى البلقان بعد أن تمكن السلطان مراد الأول الذى خلف أباه أورخان (791 761-هـ) (1360-1388م) من كسر قوتى: الصرب، والبلغار، فى موقعتى «ماريتزا، وقوصوة» فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى. فوقع البلقان وجزء كبير من شرق أوروبا تحت أقدام العثمانيين حيث لم يكن فيه غير عناصر منحلة، وبينما كانت دول البلقان النصرانية فى حالة من الفوضى والاضطراب والتفكك، كانت توجد بين العثمانيين روابط متينة وأهداف واضحة محددة. وقد لاقى نجاح الأتراك العثمانيين فى دحر أوروبا صدى عميقاً فى جميع العالم الإسلامى، وخاصة فى بلاد الترك ذاتها، مما شجع الأتراك على الاستمرار فى الهجرة من أواسط آسيا، تجمعهم أهداف ممثلة في: دين واحد، ونظام واحد، وغاية واحدة، ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الأتراك الهاربين من أواسط آسيا أمام جحافل التتار، فامتلأت بهم آسيا الصغرى

وأملاك الدولة العثمانية فى أوروبا، فازدادت بهم قوة ومنعة.

وإذا كان عثمان قد أسس الدولة، وأورخان قد أرسى قواعدها، ومراد الأول قد أعلى من شأنها، فإن بايزيد الأول والملقب بالصاعقة «يلدرم» -لحمله على أعدائه فى معارك القتال بطريقة خاطفة وسريعة، وكانت تحدث آثارها السيئة بينهم وتبعثر أجنادهم - أن بايزيد هذا - وان كان قد صادفه سوء الحظ بغزو التتار لبلاده - كاد أن يقضى قضاءً تامّاً على الإمبراطورية البيزنطية لو امتاز بالتبصر والحكمة وحُسن السياسة، فقد قضى نهائيّاً على مملكة البلغار، وفتح بلدانها الواحد بعد الآخر، كما تمكن من القضاء على قوة الصرب تماماً وإخضاع أجزاء من ألبانيا، ثم أعطى أوروبا درساً قاسياً عندما أرادت أن تتحدى قوى العثمانيين، حيث قضى على قوة التحالف الأوروبى الصليبى فى موقعة «نيكوبولس» فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى.

وربما كان بايزيد مستطيعاً فتح قسطنطينية، تلك المدينة الخالدة، لولا تردده وضعف أسطوله، وعدم استكمال استعداده، وظهور «تيمورلنك» على مسرح الأحداث لقد أرسل تيمورلنك رسالته الشهيرة إلى بايزيد ينذره بتسليم ما فى حوزته من أملاك وهو يحاصر القسطنطينية، الأمر الذى دعاه إلى رفع الحصار عنها والتحرك شطر الشرق لمواجهة عدوه. وبدأ تيمورلنك هجومه فى ربيع عام 1403م، فتقدم فى قوات كثيرة كثيفة تبلغ السبعمائة ألف، فى حين لم يتيسر لبايزيد الخروج فى أكثر من مائة ألف رجل،

ورغم ذلك شق تيمورلنك طريقه وسط الأملاك العثمانية بحذر بالغ، متجنباً الاشتباك بقوات بايزيد، حتى وصل إلى سهل «جبق آباد» الذى تستقى منه المدينة، وتحصن الجناح الآخر فى خنادق ومتاريس قوية، وأصر بايزيد على خوض المعركة برغم إلحاح قواده عليه فى تجنب رمى قواته فى معركة فاصلة، لما كان عليه جيش العثمانيين من قلة الاستعداد مع كثرة قوات تيمور، واتجه بايزيد بادئ الأمر إلى الشمال من عدوه، ثم ما لبث أن سحبه فريقاً آخر من جنده، وجعل يقذف بهم لتصيد أجناد عدوه فى حين انتشرت بقية قواته على هيئة دائرة بغية الإحاطة بعدوه ولإكراهه على خوض المعركة، وهاجم الفرسان الصربيون عليهم فى حماسة بالغة، لكن بايزيد طلب إلى جنده أن يرتدوا قبل أن يطوقهم العدو، فإذا بقوات تيمور تسبقهم إلى احتلال مواقعه الأولى فى الشمال، وقد قطعوا موارد الماء عنهم، وتابع تيمور تقدمه، فلم يشأ بايزيد أن يرتد، وخرج من صفوف جيشه كثيرون عندما رأوا أمراءهم وأعلامهم ترفرف ضمن أعلام قوات تيمور، واضطرب الموقف وتأكد بايزيد من هزيمته وضياع ملكه فقاتل ومعه حوالى خمسة آلاف من الانكشارية فى وجه تيمور بشجاعة فقاتلوا جميعاً قتال الأبطال حتى لم يعد فى طوق المقاومة أن تدفع الهزيمة أكثر مما فعلت، فلما جسنَّ الليل حاول بايزيد الهرب، لكنه قبض عليه، وحمله تيمورلنك فى قفص من حديد معه إلى عاصمته فى أواسط آسيا، ومكث هناك إلى أن مات فى العام التالى حزناً وكمداً.

محمد الأول موحد قوى العثمانيين

ولحسن حظ العثمانيين، فإنه بالرغم من الحرب الأهلية التى قامت بين أبناء بايزيد واستمرت أحدى عشر عاماً، استطاع أحدهم وهو السلطان محمد الأول أن يوحد قوى العثمانيين من جديد، وأن يتبع سياسة التفاهم لتثبيت دعائم الدولة، ومن حسن حظهم أيضاً أن زاد عدد الأتراك الهاربين أمام جحافل التتار، فامتلأت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية فى أوروبا، فازدادت قوة الدولة من الناحية الحربية بهذه العناصر الجديدة.

مراد الثانى والد محمد الفاتح

وفى عهد مراد الثانى (824-855هـ) (1421-1451م) -والد السلطان محمد الفاتح- سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى والبلقان، واكتسحوا شبه جزيرة اليونان، وهزموا المجريين والألبانيين، وبذلك بعد نهائيّاً الخطر الأوروبى، فأصبح الأتراك فى مأمن من ناحية الدانوب، وألزم الإمبراطور البيزنطى بدفع الجزية، ولم يبق له من ممتلكات الدولة البيزنطية إلا القسطنطينية وضواحيها، فكان الاستيلاء على هذه المدينة مهمة أعظم سلاطين هذه الدولة، وهو السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح لفتحه هذه المدينة.

وهنا نجد أنفسنا ملزمين بالتحدث عن السلطان مراد الثانى والد الفاتح، لِما لأحداث عصره من تأثير على نفسية ابنه وتكوين شخصيته، فنجد أن مراداً لم يكن عندما تقلد سيف آل عثمان فى «بروسه» يتعدى الثامنة عشرة من عمره، لذلك استهان «عمانويل» القيصر البيزنطى بشأنه لصغر سنه، فأطلق عمه الأمير «مصطفى ابن بايزيد» وهو الذى كان قد انقطعت أخباره بعد واقعة «أنقرة» برغم ما كان قد أبداه تيمور آنذاك من اهتمام بالغ للوقوف على حقيقة مآله، والتف حوله خلق كثير من الترك والصرب، ونادى بحقه فى عرش آل عثمان، وطلب مساعدة القيصر العسكرية على

أن يرد إلى البيزنطيين أغلب ما انتزع منهم من مدن وحصون، إذا ما تم له استخلاص الملك من ابن أخيه.

وحالفه التوفيق أولاً فكسر الجيش العثمانى وقتل قائده بايزيد باشا. ثم عبر الدردنيل يريد الأناضول، لكن مراداً رده عنها وما زال يطارده حتى اعتصم «بغاليبولى»، فاقتحمها عليه بمعاونة القائد الجنوى «ادورنو» فأسره مراد، ولقيَ الأمير مصطفى حتفه بعد أن عرض الدولة العثمانية لنكسة أشبه بتلك التى واجهها جده بايزيد عندما فاجأه تيمورلنك فى الأناضول.

واكتفى مراد الثانى بقتل عمه الباغى والتغاضى عن محرضيه، وعزم على فتح القسطنطينية وحاصرها حصاراً شديداً حتى كادت تسقط فى يده، لولا أن اضطر إلى الانصراف عنها لاخماد ثورة أثارها عليه فى آسيا الصغرى أخ صغير فى الثالثة عشرة من عمره يدعى مصطفى أيضاً، بتحريض من الإمبراطور البيزنطى وعون من أمراء القرمان، وتقدم بقواته العديدة وشرع يحاصر بروسة نفسها. وبعد أن قضى مراد الثانى على ثورة أخيه الأصغر عاد إلى أوروبا من جديد، فحاول أن يقتص من إمبراطور الروم وقيصر القسطنطينية بالاستيلاء على «سالونيك» مما اضطر البنادقة إلى صلحه على أن يترك لهم المدينة نظير جزية سنوية كبيرة، فأقر لهم مراد الثانى بذلك، واكتفى بما انتزعه من البيزنطيين من مدن وحصون على شاطئ البحر الأسود.

وما أن شعر مراد الثانى بمراوغة البنادقة وتحرشهم به حتى انقض فى بداية عام 1430م من جديد على «سالونيك»، ودخلها عنوة واستقر المسلمون بهذا المرفأ التجارى الكبير. وحاول السلطان مراد الثانى بعد ذلك أن يبسط نفوذه شمالاً على البلقان، فصد عند بلجراد عام 1433م، كما فشل قواده فى الاستيلاء على مدينة «هرمنشتاد» المجرية.

بعد ذلك سيَّر السلطان مراد الثانى قائده شهاب الدين على رأس جيش كبير لغسل ما لحقه من عار، فلم يكن نصيبه عند «فاسباج» خيراً من نصيب سابقه عند «هرمنشتاد»، وبعثت الهزائم التى نزلت بالعثمانيين فكرة الحروب الصليبية فى نصارى أوروبا من جديد، فانتهز أمراء الصرب والبشناق «البوسنة» والأفلاق والمجر فرصة انشغال السلطان مراد الثانى بثورة القرمانيين فى أملاكه الآسيوية، فزحفوا بجيش عظيم بقيادة «هونياد»، وهو قائد ترلسفالى يسميه بعض المؤرخين «فارس الأفلاق الأبيض» وهو الذى اجتذبت شهرته الكثيرين من مختلف البلاد الأوروبية، فتطوعوا فى الحرب تحت لوائه، واجتاز «هونياد» بجنده جبال البلقان وممراته الوعرة فى جرأة ومهارة نادرة، إذ كان الفصل شتاءً والمسالك شديدة الانحدار، صخرية ضيقة، تكسوها الثلوج، فالتقى بالأتراك عند «جالوواز» فيما بين «صوفيا وفيليبوبوليس» وأوقع بهم الهزيمة فى أواخر عام 1443م وانتصر عليهم، ولكنه بدلاً من أن يسير إلى «أدرنه» ويستفيد من نصره اضطر بدافع الزمهرير للرجوع إلى مدينة «بودا»

التى كان قد خرج منها، وأرغم السلطان مراد الثانى بعد الانكسار العظيم الذى أصاب العثمانيين فى أوروبا أن يهادن نصارى أوروبا، وأبرم معهم معاهدة صلح لمدة عشر سنوات فى «سيزجادن» وذلك فى شهر يوليو عام 1444م (848 هجرية) تنازل فيها عن الصرب واعترف «بجورج برانكوفيتش» أميراً عليها، كما تنازل عن الافلاق للمجر، وافتدى زوج ابنته «محمود شلبى» الذى كان قائداً عامّاً للجيوش العثمانية، بمبلغ 60 ألف دوقية. وقد حررت هذه المعاهدة باللغتين التركية والمجرية وأقسم «لاديسلاس» ملك المجر على الإنجيل كما أقسم السلطان مراد بالقرآن على أن تراعى شروط المعاهدة بذمة وشرف، وحين فرغ مراد من عقد الهدنة مع أعدائه الأوروبيين عاد إلى الأناضول ليفاجأ بخبر موت الأمير علاء الدين أكبر أبنائه، الذى شاركه فى حروبه الآسيوية، فتمكن الحزن والحسرة منه فقرر أن يعتزل الناس، فنزل لابنه محمد الثانى عن العرش، واعتكف بالأناضول ينشد الراحة والسلوة.

غّر اعتزال السلطان مراد الثانى الدول الأوروبية بعد أن انتصروا عليه، وعلا صوتهم، وأرادوا الاستفادة من الموقف، فنقضوا عهدهم ولم يكن قد انقضى شهر على تهادنهم مع العثمانيين. وراح البابا «أوجانيوس الرابع» يحرض الملوك على طرد الترك من أوروبا، ومازال مبعوثه الكاردينال «كولان» بملك المجر «لاديسلاس» الذى وقع اتفاقية الهدنة مع السلطان العثمانى وأقسم على الإنجيل باحترامها، حتى أقنعه بعدم الوفاء والالتزام بأية اتفاقية مع أعداء

النصرانية. وكذلك فعل مع «هونياد» الذى أصر أول الأمر على الوفاء بعهده إصراراً شديداً، حتى إذا ما لوحوا له بملك بلغاريا نزل عن إصراره على شرط إرجاء الزحف بعض الوقت، حتى يكون الترك قد أخلوا بلاد الصرب نهائيّاً وفقاً لما تعهدوا به، فيحتلها النصارى عندئذ دون عناء ويتخذونها قاعدة لعملياتهم الحربية.

وما أن علم مراد الثانى بذلك كله حتى خرج من عزلته، وجلس على العرش العثمانى من جديد، وتسلم القيادة العسكرية العثمانية، وعبر البسفور ومعه أربعون ألفاً من خيرة الجنود العثمانية، على سفن الجنوبيين نظير دوقية واحدة على كل جندى، دون اكتراث بأسطول البنادقة الذى كان يتسكع فى الدردنيل وعند «جاليبولى» ثم أسرع للقاء الجيوش الصليبية التى كان أغلبها من المجر وبولندا وفرنسا، وكانت قد عبرت نهر «الدانوب» حتى وصلت إلى سواحل البحر الأسود، فاستولت على حصون عديدة هناك، واكتسحت من أمامها كل قوة عثمانية إسلامية إلى أن بلغت «وارنه» مفتاح الروملى (الأملاك العثمانية فى أوروبا) فحاصرتها. وهناك تقدم السلطان مراد الثانى لقتال أعدائه فى سهل منبسط تحت أسوار المدينة. واقتتل الفريقان، ودارت بينهما معركة رهيبة كاد يكون النصر فيها للنصارى نتيجة حميتهم الدينية وحماسهم الزائد، والتقى الملك «لاديسلاس» بالسلطان مراد وجهاً لوجه واقتتلا، ودارت بينهما معركة رهيبة، تمكن فيها السلطان مراد العثمانى من قتل ملك المجر الشاب، فقد عاجله بضربة قوية من رمحه أسقطته من على

ظهر جواده فأسرع بعض الانكشارية وجزوا رأسه ورفعوها على رمح مهللين فرحين.

وكان لمنظر رأس الملك «لاديسلاس» المجرى والدم يتقاطر منها أثر شديد على جموع الصليبيين، فاستحوذ عليهم الفزع والهلع، فحمل عليهم المسلمون حملة قوية، بددت شملهم وفرطت عقدهم، وهزموهم شر هزيمة، فولوا مدبرين يدفع بعضهم بعضاً، واكتفى السلطان مراد الثانى بذلك النصر، ولم تفارقه زهادته فى الدنيا والملك، فنزل للمرة الثانية عن العرش لابنه محمد الثانى، وعاد إلى عزلته فى «مغنيسيا» بالأناضول ليقضى بقية عمره.

وهكذا ظل الحال إلى أن تولى السلطان الفاتح محمد الثانى أمور البلاد وحرر القسطنطينية وفتحها تحقيقاً للبشارة النبوية.

(3)

الإمبراطورية البيزنطية ومدينة القسطنطينية وكيفية سقوطها

مدينة القسطنطينية

لقد ظلت مدينة القسطنطينية ألفاً ومائة عام عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وخط دفاع أول تجاه الشعوب غير النصرانية، وخلال هذه القرون الأحد عشر ظهرت إحدى عشرة سلالة حكمت الإمبراطورية، كان بعضها حكيماً مصلحاً وبعضها الآخر مفسداً فاسقاً، إلا أن ضعف الحكام وفسادهم وغرورهم بصفة عامة، وظهور العرب المسلمين على مسرح السياسة الدولية عجل بفناء هذه الدولة.

وكانت الإمبراطورية البيزنطية قد بلغت ذروة مجدها وعظمتها فى عهد الإمبراطور «جستنيان» وطمحت نفسه إلى السيادة على العالم، فاشتبك فى حروب متواصلة مع الفرس فى آسيا وضد القبائل المتبربرة فى أوروبا، وامتدت فتوحات الإمبراطور جستنيان إلى شمال أفريقيا، وأقام الكثير من المنشآت والقصور الفخمة والكنائس الرائعة، والتى منها كنيسة «سانت صوفيا» التى لا تزال قبتها الرائعة مهيمنة على المدينة، وهى قبة ضخمة ترتفع عن الأرض مائة وثمانين قدماً، وكانت مزينة بالفسيفساء الرائعة، وبصور قيمة تروى قصة النصرانية كلها بألوان شبه ذهبية مشعة، وكانت الأقواس المتعددة فى الممرات تقوم على أعمدة من الرخام

الأبيض، أما المذابح فكانت تسطع ببريق الذهب والفضة، وفى عهد الإمبراطور «جستنيان» أيضاً أصبحت اليونانية لغة الإمبراطورية وأهملت اللاتينية، وأصبح للمدينة طابع خاص فى الفن والبناء والتقاليد وعادات أهلها، وأصبح هذا الطراز من الفن والطباع وحتى أسلوب الملبس يعرف باسم الطراز البيزنطى، لتميزه عن الطابع اليونانى القديم ولما به من سمات خاصة وعلامات مميزة.

أحوال الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن السادس الميلادى

وتتلخص أحوال الإمبراطورية البيزنطية العامة فى أنها تمتعت خلال القرن السادس الميلادى- وهو القرن السابق لقرن الفتوح الإسلامية- بالقوة والقدرة الاقتصادية، فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة فى ولاياتها الكبرى بصفة خاصة، وهى: آسيا الصغرى، وسوريا، ومصر. ولكل من هذه الولايات قاعدة عالمية الشهرة، هى: القسطنطينية، وأنطاكية، والإسكندرية. وكانت هذه القواعد مراكز صناعية كبرى لعالم البحر الأبيض المتوسط كله، وصدرت إليه منتجاتها من المنسوجات والبردى والزجاج والأوانى المعدنية، كذلك كانت تصدر ما يرد إليه برّاً وبحراً من بلاد الصين وجزر الهند الشرقية وسواحل أفريقية الشرقية، فقد كانت مصر نهاية طريق البحر الأحمر، وسوريا نهاية طريق آسيا البرى وروافده من شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس، كذلك كانت القسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود.

ومن سياسات الإمبراطورية البيزنطية واتجاهات أباطرتها أنها لم تغفل العناية بالقوات البحرية، ولاسيما فى القرن الذهبى المشهور، بل إن هذه العناية هى التى شكلت نظامها، منذ عهد الإمبراطور «جستنيان» (565م) وهرقل (641م) وعهود ما جاء بعدهما. واتجهت همّة الأباطرة البزنطيين إلى احتلال الثغور البحرية والسواحل، وتجنب التوغل فى الأراضى الداخلية، ومن ثم قلّت حاجتهم إلى الجيوش البرية الضخمة التى تكلف الشىء الكثير.

ومما ساعد على تفوق بيزنطة البحرى فى تلك الفترة، أنه لم يكن لها منافس، وهى فى ذلك تشبه تفوق بريطانيا البحرى فى مطلع العصور الحديثة، فكان لبيزنطة بعض الساحل الجنوبى لإسبانيا، والساحل الأفريقى الشمالى، وجزر سردينيا وكورسيكا وصقلية وكريت وقبرص ومدينة الإسكندرية فضلاً عن جنوه ونابولى والدردنيل والقرم، ولم تقتصر بيزنطة على البحر المتوسط بل تجاوزته إلى غيره من البحار والأقطار، وكان هذا التجاوز والتفوق هو سر المنافسة الحادة بين الروم والفرس وتأصل العداوة بين الإمبراطوريتين الكبيرتين فى ذلك الوقت.

القسطنطينية العاصمة العظمى للعالم

وبتوالى السنين أصبحت القسطنطينية العاصمة العظمى للعالم أجمع، بفضل ثرائها وكنائسها وقصور أباطرتها، وعاش الأدب اليونانى القديم حيّاً فى مكتباتها، وفى ذلك المثلث الجبلى -الذى

يندبه ماء البحر والرياح- نشأ جيل من البشرية عاشت معهم المدينة وعاشوا هم معها، وكان الأباطرة -بصفة عامة- طغاة، حتى أن أفاضلهم كانوا قساة، ولكن الناس تجملوا بالصبر والتحمل. وكما تنبأ قسطنطين الأكبر عند بنائه المدينة، فقد صمدت فى موقعها الاستراتيجى، وتمكنت من صد أعدائها من كل جانب، فردت حملة إثر أخرى من التتار والبلغار والهون والقوط والسلاف، وتميز شعبها بأنه محارب جرىء مظفر لا يقهر.

وبينما كانت القسطنطينية تزداد ثروة وقوة اجتاح البربر أوروبا، واستولوا على روما، وطغت حالة من الفوضى والجهل والهمجية على ما كان يسمى بالإمبراطورية الرومانية، ومان أن توفى جستنيان حتى كانت الدولة كالطير الذبيح لا ينهض إلا ليسقط من جديد، فقد ظلت الدولة البيزنطية بعد ذلك غارقة فى الفوضى والاضطراب حتى قُيِّض لها رجل، قوى حازم، هو «هرقل» (641 - 610م) فأنقذها ثانية مما كانت فيه، واسترد من الفرس البلاد التى كانوا قد استولو عليها من قبل وهى: مصر والشام وآسيا الصغرى. ولم يطل الأمر كثيراً فقد ظهر الإسلام - ذلك التيار الجارف الذى اكتسح كل ما صادفه، وغلب كل شىء اعترضه، وطما على السهل والجبل - فغزا العرب المسلمون أملاك الفرس والروم فى آن واحد، واستولوا من الدولة البيزنطية على مصر والشام وشمال أفريقيا، وحرمت هذه الدولة من مناطق واسعة شاسعة كانت تمدها بالمال والغلال والعتاد والرجال.

ولم يكن العرب المسلمون وحدهم هم السبب فى انهيار الدولة

البيزنطية، فقد كان السلاف والبلغار قد تمكنوا أيضاً من احتلال البلقان، ورسخت أقدامهم فيه، وشرعوا يغزون الدولة البيزنطية حتى بلغت هجماتهم أطراف القسطنطينية نفسها.

وكان الإجهاد العظيم الذى ألم بالدولة البيزنطية إثر حروبها مع الدولة الفارسية - رغم تفوقها البحرى - من أسباب سرعة الفتح العظيم والنصر المبين الذى أحرزه المسلمون، ويضاف إليه ما لمسه سكان البلاد المفتوحة من خصائص الإسلام، وطبيعة تعاليمه القائمة على التسامح، وهو أمر لم تألفه الشعوب الواقعة تحت نير الأباطرة البيزنطيين، وفى فترة كانت مليئة بالفتن المذهبية والصراع الدينى واستعباد الناس، وهذا ما حمل السكان المحليين - وهم شعوب عريقة لها تاريخها وماضيها وحضارتها وتراثها الإنسانى - على الترحيب بالفتح الإسلامى. وأصدق دليل على ذلك أن مصير الشام تقرر فى معركة واحدة هى وقعة اليرموك سنة 15 هجرية (636م)، كما تقرر مصير مصر فى وقعة واحدة هى وقعة حصن «بابليون» سنة 20 هجرى (641م).

ولم تكن الناحية المالية فى الدولة البيزنطية حسنة بعد انكماشها وهزائمها المتوالية، فقد ابتليت بيزنطة أيضاً بإفلاس عام، نتج عنه بيع السفن الحربية وتقليل الجيش لخفض النفقات، كما نتج عن ذلك أيضاً بيع مدن بيزنطية كاملة للتجار البنادقة والجنويين، فقد بيعت «سالونيك» ثانى بلد فى الإمبراطورية فى عام 1423م للبنادقة بمبلغ خمسين ألف دوقية.

أخريات أيام الدولة البيزنطية

كانت الدولة البيزنطية فى أخريات أيامها مباءة للمكائد والدسائس والمؤامرات، فقد كان البلاط البيزنطى لا يحوى إلا الطامحين والطامعين وأبناء الطبقات الأرستقراطية التى تنظر إلى نفسها أكثر مما تنظر إلى خدمة الشعب والدولة، فسبب ذلك فساد الحكم والإدارة، وكان نتيجة لذلك انتشار الفوض والإهمال بين موظفى الدولة.

ومن مظاهر أدواء بيزنطة أيضاً ولعها بمظاهر الأبهة والعظمة، وقد ظلت حريصة على ذلك حتى فى أيام ضعفها وإفلاسها، ولجأت لإرضاء هذه النزعة إلى وسائل سخيفة شاذة وأهملت الدولة الأسطول منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى بحجة أنه يحتاج أموالاً كثيرة وهى تنفق فى غير جدوى؛ وقلت عدد وحدات الجيش ونقصت ميزانيته، وبدا إفلاس الدولة يظهر بوضوح، وتكشف لأعين الناس فى أزرى صوره وأفضحها، فعندما احتفل بزفاف الإمبراطور «يوحنا باليولوجوس الخامس» سنة 1347م لم يكن بين الأوانى شىء من الذهب والفضة، بل كانت كلها من الفخار والقصدير، أما الملابس والتيجان الإمبراطورية فلم تزين باللآلئ والجواهر الأصلية كما كان من قبل، بل زخرفت وبرقشت بحبات من الخرز واللآلئ الصناعية،

فاضطر أواخر الأباطرة من آل باليولوجوس أمام الفقر الشديد - بعد أن باعوا كل ما يملكون من متاع وجواهر - أن يبيعوا قطعاً من أراضى دولتهم فى مقابل بضعة آلاف من الدوقيات، وانحدرت الدولة دركة أخرى فى الانحلال والعوز فصارت تبيع التجار مدناً برمتها، كما حدث فى عام 1423 م عندما بيعت مدينة «سالونيك» كما ذكرنا سالفاً.

وكان من جراء الاضطراب الذى ساد الدولة، وفساد الحكم والإدارة فيها، وانتشار الفوضى والإهمال، أن توالت عليها الأوبئة والطواعين، فهدت كيانها، وقضت على الألوف من سكانها، وكان أشدها فتكاً ذلك الذى اجتاح أوروبا الشرقية سنة 1347م وعرف بالموت الأسود، ثم الوباء الذى اجتاح القسطنطينية سنة 1431م فأتى على عدد كبير من سكانها، حتى صارت الجثث فى المنازل لا تجد من يدفنها.

ولم يكن الفساد والإهمال واللامبالاة الطامة الكبرى فى الإمبراطورية البيزنطية، بل كانت المسألة الدينية والخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية من المشكلات المهمة أيضاً، والتى أدت فى النهاية إلى حقد دفين بين الأمتين الرومية واللاتينية، ولم تكن أسباب الخلاف هذا إلا عدة مسائل تتعلق بالعقيدة وبعض الطقوس الدينية. ويعتبر المؤرخون أن بيزنطة قد شقيت بالخلافات الدينية شقاءً كبيراً، بل يعتبرون الصراع المذهبى هو المشكلة المزمنة التى لازمت الإمبراطورية البيزنطية طوال تاريخها، وحتى آخر لحظة

من حياتها. كما أن من أهم الأسباب التى زادت الخلافات حدة ذلك النزاع الذى نشب بين بابا روما وبطريرك القسطنطينية على الرئاسة والصدارة، فقد كان البطريرك يعد نفسه ندّاً للبابا لا نائباً له، بينما كان البابا يعتبره دونه فى المنزلة والدرجة.

وقد احتج البابا «ليون الأكبر» ذات مرة على أحد المجامع لكونه جعل لأسقف القسطنطينية نفس المنزلة والمكانة التى لبابا روما. وعندما أصدر البابا «نقولا الأول» فى القرن التاسع الميلادى قرار حرمان على بطريرك القسطنطينية قابله هذا بالمثل وأصدره ضده قرار حرمان أيضاً.

التعصب الدينى لدى البيزنطيين

ولم يكن النزاع وقفاً على رجال الدين وحدهم، فإن الشعب الرومى نفسه كان شديد التعصب للمذهب الأرثوذكسى، ووجد هذا الشعب فى مسائل الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية مجالاً واسعاً ومادة دسمة لإشباع هذا النهم الفريد، وكان أهل أوروبا بدروهم يعتبرون الأروام خوارج مارقين يجب قتالهم كالمسلمين سواء بسواء، بل صرح بعضهم أنه يجب قتال الروم واستئصال شأفتهم قبل قتال المسلمين. أما فى بيزنطة نفسها فقد انقلب الشعور الدينى إلى شعور وطنى، وأصبح فى نظرهم مجرد الميل إلى الغرب خيانة وطنية، غير أن مواضع الخلاف لم تقتصر على تلك المسائل الدينية فحسب، بل تعدتها إلى مسائل أخرى، جذورها

الأطماع السياسية والدينية القديمة، فضلاً عن المزاج القومى والخصائص الخلقية التى ساعدت على استفحال الخلاف وإحباط جميع المساعى المبذولة لإصلاح ذات البين.

وإلى جانب التعصب الدينى، كان أهل بيزنطة شديدى الإيمان بالخرافات والأساطير، وكانوا بجميع طبقاتهم مولعين بالجدل والنقاش فى المسائل الدينية، وأصبح ذلك فيهم غريزة وسليقة لا تكاد تفارقهم. وكان الروم يحرصون كل الحرص على حضور المجالس التى يعقدها رجال الدين للمناظرة والمجادلة ويجدون فى ذلك متعة وسلوى، وانصرف الناس إلى هذا الجدل الدينى العقيم لا يكاد يصرفهم عنه شىء، فألهاهم عن النظر فى شؤون بلادهم وما كان يحدث بها من أخطار بعيدة أو قريبة.

أما الغرب اللاتينى فقد بدت الإمبراطورية البيزنطية فى نظره ذات صفتين متباينتين: فهى دولة نصرانية تجاور أعداءً غير نصارى يحق على اللاتين مساعدتها، وهى كذلك دولة ملوثة بالهرطقة، متحدية روما أشد التحدى، معادية لكل محاولة تبشيرية كاثوليكية فى الجنوب الشرقى من أوروبا.

موقف الإمبراطورية البيزنطية من الحروب الصليبية على المشرق الإسلامى

لم تكن الحروب الصليبية كما يتبادر إلى الذهن خيراً وبركة على الدولة البيزنطية، فإنها زادت من هوة الخلاف بين الروم واللاتين، وأججت العداء المر بين العالم النصرانى شرقيه وغربيه، وتبارت

أفكار اللاتين فى خلع الإمبراطور البيزنطى وفتح القسطنطينية وإخضاع الإمبراطورية الرومانية الشرقية لحكمهم بالقوة. ذلك ما قاله «روبرت جويسكار» وابنه «بوهمند» وقريباهما «ريتشارد الثانى ووليم الثانى» ملوك صقلية. وهو أيضاً قول تلك الزمرة من المغامرين الشماليين الذين أخرجوا البيزنطيين من جنوب إيطاليا، وعاشوا حياتهم فى خشية ورعب وهلع، أن تنتقم الدولة البيزنطية منهم انتقاماً شافياً، فرأوا أن يعاجلوها قبل أن تفلت منهم الفرصة، وصادف ذلك هوى فى نفوس الكثيرين لا سيما تجار البندقية الذين وجدوا فى الدولة البيزنطية مجالاً واسعاً للتجارة والنهب، فضلاً عن غلاة السياسيين، بل حدث أكثر من مرة أن البابوية نفسها أبدت استعدادها للمشاركة فى هدم الإمبراطورية النصرانية فى الشرق.

ولسنا بحاجة إلى المبالغة فى هول النتائج التى ترتبت على تلك العداوة التى نشبت بين شطرى العالم النصرانى، فإن فشل الصليبيين فى استرجاع الشرق الإسلامى من المسلمين يعود إلى أسباب عديدة، من بينها تلك العداوة وما امتزجت به من الشعوبية والخلاف المذهبى، وما داخلها من الطموح السياسى والمنفعة المادية، حتى انتهى الأمر بتحول الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن غرضها الصليبى إلى هدم الإمبراطورية البيزنطية، وتم لها فتح القسطنطينية ونهبها فى سنة 1204م، وتمزيق أكبر الدول الأوروبية وأغناها حضارة فى العصور الوسطى. وقد استطاع البيزنطيون استعادة عاصمتهم سنة 1261م بعد نصف قرن تقريباً من الحكم

اللاتينى. وإذا لم يكن بينهم وبين اللاتينيين قبل تلك الحملة سوى أن المودة كانت مفقودة، فليس من العسير أن نتصور ما تأجج فى نفوسهم بعدها من بغض شديد لأولئك الذين أذاقوهم مرير الذلة، واستعمروا وطنهم وديارهم عشرات السنين.

الإمبراطور ميخائيل الثانى واستعادة القسطنطينية

واستطاع الإمبراطور ميخائيل الثامن استعادة القسطنطينية، لكن المدينة كانت فى حالة سيئة من الضعف والانحلال، فاصطدم الإمبراطور بعداوة الغرب، وأخذ البابا يناصر الأمراء الغربيين على إعادة الاستيلاء على الإمبراطورية الرومانية المنحلة، واعتبر البابا ما أقدم عليه الإمبراطور ميخائيل الثامن بدأ من مصالحة البابا، فعرض عليه توحيد الكنيستين، وأجبر الإمبراطور شعبه الموتور على هذا التوحيد، واتبع ذلك تشريد رجال الدين المخالفين له، ففر معظمهم. كذلك اضطر البطريرك أن يعقد مجلساً دينيّاً فى القسطنطينية عام 1277م وأصدر قرار حرمان الكنيسة الشرقية للامبراطور ميخائيل الثامن بطل التحرير، ولم يسلم هذا التعيس بدوره من الجانب الآخر، فقد توفى بابا روما المتسامح معه وحل محله بابا جديد كان أشد كراهية وبغضاً للروم، واتهم الإمبراطور بالنفاق والمداهنة وأصدر ضده قرار حرمان. وهكذا مات الإمبراطور ميخائيل الثامن الذى حاول التوفيق بين الكنيستين بعد أن صدر ضده قرار حرمان من كل من: بابا روما، وبطريرك

القسطنطينية، وبعد أن نال غضب الروم واللاتين جميعاً.

لذا راحت المحاولات التى بذلت لتوحيد القوى النصرانية هباءً، ولم تنجح فى الوقوف فى وجه الخطر العثمانى الزاحف، ورفض رهبان القسطنطينية وقساوستها أن يقبلوا ما جادت به قرائح رجال الدين من الاقتراحات فى المجمع الكنسى بمدينة «ليون» سنة 1274م، أو فى المجمع الكنسى فى مدينة «ترارا» سنة 1438م. ولم يكن من سبيل إلى التغلب على تلك المعارضة العنيفة إلا أن ينال اللاتينيون انتصارات حربية كبيرة على العثمانيين، لكن تلك الانتصارات لم تتيسر وقتذاك، فبقيت الهوة التى حفرتها منافسات البابوية والبطريركية من قبل فاغرة فاها، ومهّد انقسام العالم النصرانى على نفسه للعثمانيين أن يثبتوا أقدامهم فى أرض أوروبا، فلم يلبثوا أن زحفوا بجيوشهم نحو الدانوب، وفتحوا بلاد اليونان وجزائرها، وحققوا منتهى آمالهم السياسية والعسكرية حين استولوا سنة 1435م على مدينة القسطنطينية نفسها.

(4)
الدولة الإسلامية
فى مواجهة الإمبراطورية البيزنطية

الروم يواجهون المسلمين

يرى مؤرخو الغرب وهم غير محايدين فى معظم تحليلاتهم أن دولة الروم لم تعِر الحركة الإسلامية التى أخذت تصوغ العرب داخل الجزيرة العربية فى قالب جديد أى اهتمام، فإن أصداء الحوادث الكبرى التى قامت بها تلك الدولة المسلمة الفتية تردد صداها فى كافة بلاد الغرب. وجعلت هذه الدولة - بفضل جريان الطريق التجارى من اليمن إلى فلسطين وسورية ومصر - تقف على أخبار دولة الروم ومايضطرب به جوفها من صخب مذهبى عنيف وتتطلع إلى اجتياحها هذا كان جزءًا من تحليلهم للأحداث الدائرة بين العرب والروم.

ويعتبر الرسول -ﷺ- أول قائد رسم بنفسه الخطة التمهيدية لاستيلاء الجيوش العربية على بلاد الشام وضمها إلى دولة الإسلام، ذلك أن النبى -عليه السلام- لم يقف ساكناً إزاء استشهاد رسوله الحارث بين عمير الأزدى الذى أرسله إلى صاحب بصرى ليعرض عليه دعوة الإسلام، فعرض له فى مؤتة شرحبيل بن عمرو الغسانى أمير البلقاء فقتله، ففى سنة 8هـ الموافقة 629م أرسل النبى -ﷺ- زيد ابن حارثة على رأس حملة قوامها ثلاثة آلاف رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب، يدفعه إلى ذلك أمور، منها واجب

الأخذ بثأر الحارث بن عمير- وهناك عند «مؤتة» - الواقعة على حدود البلقاء إلى الشرق من الطرف الجنوبى للبحر الميت - التقى المسلمون بقوات الروم، ولم يحرزوا انتصاراً باهراً، وتمكن الروم من حماية حدود بلاد الشام. وبينما رأى الروم فى تلك الحملة إغارة من الإغارات التى اعتاد البدو شنها للسلب والنهب، إلا أن حملة زيد هذه كانت فى الحقيقة إغارة من نوع جديد لم تقدر دولة الروم أهميتها، فهى اغارة منظمة. ترمى إلى أهداف كبيرة، وقد لعب استشهاد قادتها الثلاثة -الذين عينهم رسول الله ﷺ- دوراً كبيراً فى تطلع المسلمين إلى تلك البلاد، التى هى درة الدولة البيزنطية. ولم تمض فترة يسيرة حتى سقطت الشام وتلتها مصر فى أيدى العرب، وأصبحتا جزءاً من الدولة الإسلامية الناشئة. وبذلك أصبح المسلمون سادة مصر والشام، وأصبحوا يتطلعون إلى البحر الأبيض المتوسط الذى امتدت سواحل ممتلكاتهم عليه، وأخذوا يعملون على دفع غائلة الروم وإقصاء سلطانهم عنه، ولم يلبث المسلمون أن أنشأوا السفن الحربية، وغدت أساطيلهم تمخر عباب المياه، وتصد أساطيل الروم، وتوقع بها الهزائم قبل أن تقترب من الشواطىء الإسلامية هذا هو تحليل بعض المستشرقين للأحداث بين العرب والروم.

والمعروف أن العرب المسلمين قد عمدوا إلى اتخاذ قواعد حكمهم بعيداً عن ساحل البحر، كما فى دمشق والفسطاط، على حين اتخذها من سبقهم من اليونان والرومان على الساحل، كما فى أنطاكية

والإسكندرية، إلا أن الضرورة قد أجبرت العرب على الاهتمام بالبحر، ففضلاً عن الاعتبارات العسكرية، فهناك أهمية البحر كطريق مهم للتجارة العالمية. وزاد فى تنبيه العرب إلى أهمية البحر، تلك الحملة البحرية التى أرسلها البيزنطيون عام 25 هجرية (645م) عقب فتح مصر، واستولت على الإسكندرية، ولم تطرد منها إلا بعد جهد عنيف.

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان أول من نظم أسطولاً فى الإسلام، وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو فى البحر المتوسط، وكان معاوية قد استأذن الخليفة عمر فى الغزو فى البحر، فأذن له واشترط عليه أن لا يجبر أحداً من جند المسلمين على ركوب البحر والغزو فيه.

البحرية الإسلامية وذات الصوار

هكذا قامت البحرية الإسلامية، وتشجع المسلمون على ركوب البحر وارتياده، ولا سيما بعد انتصارهم على قبرص عام 28 هجرية (648م)، وانتصارهم الساحق على البحرية البيزنطية عام 31 هجرية (651م) فى الوقعة المعروفة باسم «ذات الصوارى» وكانت موقعة مهمة ظهر للمسلمين بعدها تفوقهم البحرى، وتجرؤوا على أعدائهم فى البحر، وزال خوفهم من ركوبه، فهم قد انتصروا فى تلك المعركة على صاحبة أقوى قوة بحرية معاصرة، وكان الأسطول الإسلامى يتكون من مائتى سفينة، وعليه بحارة من المصريين والسوريين، وتراوحت سفن الأسطول البيزنطى بين 700 وألف سفينة بين كبيرة وصغيرة، ويقول مؤرخان جليلان وهما الطبرى وابن الأثير: إن الروم

قد خرجوا فى جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام. والتقى الأسطولان عند موضع «فيونكس Phoenix» على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى قرب شواطىء «ليكيا» ويقود الأسطول البيزنطى الإمبراطور «قنسطانز الثاني» 668 - 641م، وعلى الاسطول الإسلامى معاوية بن أبى سفيان يقول أهل الشام، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح والى مصر، وإليه أمر البحرية الإسلامية.

معركة ذات الصوار

وقبل بدء المعركة بات المسلمون يقرأون القرآن، بينما أخذ الروم يضربون النواقيس. وربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل قوية، وذلك لمهارتهم فى الحروب البرية، مما استحال على عدوهم أن يخترق صفوفهم، وانتهت المعركة بتدمير الأسطول البيزنطى، وهرب الإمبراطور «قنسطانز الثانى» إلى صقلية، حيث عنفه أهلها لخيبته. ومما قالوه له «أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم» ثم أدخلوه الحمام وقتلوه. وتعتبر تلك الوقعة البحرية التى يسميها المؤرخون العرب «معركة ذات الصوارى» - لكثرة السفن التى اشتبكت فى القتال - حدّاً فاصلاً فى سياسة الروم إزاء المسلمين، فقد تيقن الأباطرة فى القسطنطينية بعدها أن إعداد حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع، وأنه من الأجدى تنظيم الدولة وتخطيط سياستها على أساس الأمر الواقع، للاحتفاظ بالبقية

الباقية من ممتلكاتها، وتقوية أدأتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذين أخذوا يتطلعون إلى العاصمة القسطنطينية نفسها.

رأى المؤرخ النمساوى «فون هامر»

ويذكر المؤرخ النمساوى «فون هامر» أن القسطنطينية قد حوصرت تسعا وعشرين مرة منذ تأسيسها، وكان أول من حاصرها من العرب فى عهد معاوية بن أبى سفيان عام 654م، ابنه يزيد، ثم حاصرها فيما بعد سليمان بن عبدالملك، ولكن بالرغم مما أعده المسلمون من كثرة الجند وعظم العدة فى البر والبحر، وما أظهروه من قوة العزم والبسالة فى الحصار، فقد ردتهم القسطنطينية بأسوارها المنيعة ونيرانها الفتاكة على أعقابهم. وكانت النار الاغريقية الشهيرة لها ميزة السبق وإنهاء المعارك، وهو سلاح سرى رهيب أخفته بيزنطة ولم تظهره إلا فى الوقت المناسب والحالات الطارئة، وكان هذا السلاح هو العامل الحاسم فى انتصار البيزنطيين على الأسطول الإسلامى الذى حاصر القسطنطينية سبع سنوات بقيادة مسلمة بن عبدالملك أخى الخليفة سليمان ابن عبدالملك. وهذا السلاح عبارة عن مواد ملتهبة من بينها ملح البارود ومن خصائصه الاشتعال عند ملامسته الهدف.

معاوية ومحاولة فتح القسطنطينية

وقد تطلع معاوية بن أبى سفيان إلى إكمال السياسة الحربية التى بدأها الخلفاء الراشدون من المدينة، وتطلع إلى تحقيق تلك الرغبة التى جاشت فى نفسه أيام أن كان والياً على الشام لعمر وعثمان،

وهى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الروم، وتتويج الفتوحات الإسلامية - التى طوت المدائن عاصمة فارس من قبل - بهذه العاصمة الجديدة، وشجع معاوية على الإقدام على تلك المحاولة الجريئة اعتلاء الإمبراطور «قسطنطين الرابع» (685 - 668م) الصغير السن عرش دولة الروم بعد مقتل أبيه «قنسطانز».

اتجهت الحملة الإسلامية التى أعدها معاوية شطر القسطنطينية فى نهاية عام 672م، واشتبكت فى عمليات حربية مع أساطيل الروم فى مياه القسطنطينية على مدى سبع سنوات، فى الفترة من 674 إلى سنة 680م، على أن تلك الفترة برمتها لم تكن مسرحاً لحروب متصلة، فكانت خطة المسلمين قضاء فصل الشتاء فى جزيرة «كيزيكوس». وظل المسلمون يجاهدون على هذا النحو دون أن تتمكن أساطيلهم أو جيوشهم من الاستيلاء على المدينة. وقد اضطر معاوية إلى رفع الحصار عن القسطنطينية حين أحس بدنو أجله، ووجد أن الحكمة تقتضى وجود قواته قريباً منه للمحافظة على سلامة البيت الأموى الحاكم. وبعد عودة القوات الإسلامية من حصارها للقسطنطينية تحققت مخاوف معاوية، إذ توفى بعد قليل فى سنة 60 هجرية (680م) تاركاً الدولة الإسلامية تجتاز مرحلة أخرى من الاضطرابات الداخلية والنزاع على الخلافة نفسها بين أسرته وبين كبار رجالات الدولة الإسلامية آنذاك.

محاولات أخرى فى عهد الوليد بن عبدالملك

ورغم تلك الخلافات والاضطرابات التى حدثت فى الدولة الإسلامية لم يتخل المسلمون عن مطمحهم فى الاستيلاء على القسطنطينية، وعندما اشتدت حركة الفتوحات الإسلامية مرة ثانية فى عهد الوليد بن عبدالملك (96 - 86هـ) (715 705- م) أخذ هذا الخليفة - الذى اقترن عهده بفتوحات واسعة - بعد العدة لمهاجمة القسطنطينية، لكن الوليد توفى قبل خروج الحملة إلى القسطنطينية واتجه أخوه وخليفته سليمان بن عبدالملك (99 96- هـ) (717 - 715م) لتنفيذ هذا الهدف العظيم، وتجلت حماسة الخليفة ومن ورائه الدولة الإسلامية فى إعداد الجيش وأسطول عظيمين، وسلَّم مقاليد الحملة لأخيه مسلمة. وفى سنة 98هـ (15 أغسطس 717م) وقفت الجيوش البرية أمام أسوار القسطنطينية، على حين وصل الأسطول الإسلامى إلى مياه القسطنطينية فى أول سبتمبر سنة 717م. ولأسباب خارجة عن إرادة الأسطول الإسلامى لم يستطع إحكام الحصار على القسطنطينية، وهبت رياح غيَّرت اتجاه السفن، فارتطمت ببعضها وفقدت توازنها ووقع اضطراب شديد. وفى هذه الأثناء حمل الروم بسفن محملة بالنار الأغريقية «Greek Fire» حملة قوية زادت الاضطراب فى الأسطول الإسلامى، وقضت على خططه، وألحقت به الهزيمة. وأقبل الشتاء على المحاصرين، فعانوا من ذلك الشىء الكثير إلى جانب ركود حركاتهم الحربية، وعندما

أقبل الربيع تجدد الأمل عند المسلمين، إذ وصلتهم نجدات بحرية جديدة من مصر وشمال أفريقيا، لكن هذه السفن لم تستطع بدورها إنجاز الخطة، وخشيت أن تلقى نفس المصير الذى لقيه الأسطول الإسلامى من قبل. وفى 15 أغسطس من عام (99هـ) (718م) وبعد حصار دام اثنى عشر شهراً، أمر الخليفة الأموى الجديد عمر بن عبدالعزيز الجيوش الإسلامية برفع الحصار والعودة إلى بلاد الشام، بعد أن وجد ألا طائل من متابعة القتال.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية على حدود الدولة البيزنطية، كان غرضها حماية ثغور المسلمين، والإغارة على أملاك الدولة البيزنطية، واستطاعت هذه الدويلات أن تنتزع منها معظم بلاد آسيا الصغرى وتضمها إلى دار الإسلام.

هذا ما رآه المؤرخون الفرنجة وإن كنا لم نعثر على مقابل محايد من المؤرخين العرب الذين لم يكتبوا عن تلك الحقبة الزمنية واكتفى البعض بالنقل عن تلك المصادر التى لم تكن محايدة فى وصفها على الإطلاق لأحوال المسلمين فى تلك الفترة الزمنية.

(5)
ظهور دولة السلاجقة

ظهور السلاجقة

ومحاربتهم للدولة البيزنطية

وبظهور السلاجقة على مسرح التاريخ قامت دولتهم بدور كبير حيال الدولة البيزنطية، فقد استطاع السلطان «ألب أرسلان» (555-565هـ) (1063-1072م) أن يهزم الإمبراطور «رومانوس ديوجينوس» فى موقعة «ملاز كرد»، بل ويأسره، ويضربه بالسوط، اظهاراً لعزة المسلمين واحتقاراً واستخفافاً بعدوهم، ثم أملى عليه شروطاً قاسية، وأطلق سراحه بعد أن ملأه ذعراً ورعباً. وقبع ذلك الإمبراطور المخذول بعد ذلك فى عاصمة ملكه يدفع الجزية للسلطان السلجوقى. وكان لهذه الواقعة صدى كبير فى دولة الروم إذ ضاعت آسيا الصغرى نهائيّاً من أيديهم، كما قام فى قونية فرع سلجوقى جديد واقتطع جزءاً من بلاد الروم وسموا بسلاجقة الروم، وكان لهؤلاء الفضل كل الفضل فى تفتيت عضد الدولة الرومية، حتى استطاعوا أن يصلوا إلى سواحل بحر إيجة غرباً.

وخلف العثمانيون سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى كما ذكرنا من قبل، وكان هدفهم فتح القسطنطينية منذ أن قامت دولتهم، وبعد أن عبروا بحر مرمرة وأرسوا حكمهم فى شرقي أوروبا، أصبح هذا الفتح ضرورة سياسية ملحة لهم. وقد كان العثمانيون فى ذلك

العهد أشد الناس حماساً للإسلام، وأصدقهم جهاداً فى سبيله، فحاصرها السلطان بايزيد الأول، والسلطان مراد الثانى، لكنهما لم يصلا إلى نتيجة. ولما تزايد الخطر العثمانى واستفحل لم يجد الإمبراطور «يوحنا» مناصاً من اللجوء إلى روما بنفسه، فكان بذلك أول إمبراطور بيزنطى زار الغرب، وأعلن للبابا «أوربان الخامس» فى كنيسة القديس بطرس اعتناقه لمذهب اللاتين، ثم سجد بين يديه، وأخذ يقبله من أخمص قدمه حتى قمة رأسه. واحتفى البابا به وأكرم وفادته، ولم يجد ما يدفعه له سوى سفينتين اثنتين وثلاثمائة جندى وبضع دوقيات ليس غير.

وما أن جاء خلفه «أمانويل» حتى شد رحاله بدوره إلى الغرب يطلب المساعدة، فمكث سنتين يطوف بلدان أوروبا المختلفة دون أن ينال شيئاً، فعاد إلى بلاده. وكان منذ أن خرج منها يتوقع فى كل لحظة أن يباغته الخبر بسقوط القسطنطينية، وما كان أشد فرحته عندما علم قبل وصوله إلى القسطنطينية بهزيمة خصمه بايزيد وموته فى أسر «تيمورلنك». ولما وقعت الدولة العثمانية فى الفوضى والاضطراب بسبب نشوب الخلاف بين أبناء بايزيد الزربعة لم يستفد الإمبراطور «أمانويل» من هذه الفرصة، لكن هاله أن رأى الدولة العثمانية قد انبعثت من جديد شامخة البنيان، قوية الأركان، وشرع مراد الثانى يواصل ما انقطع من الفتوحات فى آسيا وأوروبا كأن لم يكن شىء البتة، وقد حاصر ذلك السلطان العثمانى بدوره القسطنطينية، لكنه لم يتمكن من فتحها وجاء ولده

محمد الثانى فاستطاع بما أظهره من جلد وشجاعة فى الحصار والقتال المتواصل أن يفتح هذه المدينة التاريخية، وحقق بذلك حلم الفاتحين الأول، كما حقق البشارة النبوية الكريمة: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش».

وهذا الأمير كان السلطان محمد الفاتح الذى لم يعطيه المؤرخون العرب حقه كفاتح وبطل استطاع أن يقف بالمرصاد للإمبراطورية البيزنطية ويمحوها تماماً من التاريخ.

آخر أباطرة الإمبراطورية البيزنطية قسطنطين الحادى عشر

اعتلى الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر عرش بيزنطة سنة 1448م، وهو على يقين أنه فى خطر وأن من المستحيل أن ينال النصر، لكنه استمر فى القتال. وكانت تولية قسطنطين العرش نذير شؤم للدولة أدى بها فى النهاية إلى الانهيار التام. وسلك قسطنطين طرقاً جديدة للحصول على المعونات من أوروبا الغربية لإنقاذ القسطنطينية وخالف سلفه تمام المخالفة. وكانت أولى محاولاته عن طريق المصاهرة، ففكر بالزواج بمارية الصربية أرملة السلطان مراد الثانى وذلك عقب عودتها إلى وطنها بعد وفاة زوجها السلطان، وبرغم أنها كانت فى العقد الخامس من عمرها، إلا أن قسطنطين الشاب الممتلئ الجسم قد قبل الزواج بها، وكان يأمل من وراء هذا الزواج أن يكسب قوة والدها «جورج برانكوفتش»، كما أن مارية الصربية كانت بمثابة الوالدة للسلطان محمد الثانى فلعلها

تثنيه عن القيام ضده، بيد أن أمر الزواج هذا لم يتم، فقد آثرت مارية أن تنذر نفسها لله، واعتزلت الناس وقبعت فى أحد الاديرة.

وهكذا شغل الإمبراطور الشاب بأمر الزواج، وتصور أنه لابد له أن يحدث مصاهرة يجلب من ورائها المساعدة، للوقوف أمام جحافل العثمانيين الجارفة واتجهت أنظاره هذه المرة إلى مصاهرة يجلب من ورائها المساعدة، للوقوف أمام جحافل العثمانيين الجارفة. واتجهت أنظاره هذه المرة إلى مصاهرة إمبراطور طرابيزون «داود كمنينوس»، كما أشار عليه رجال بلاطه، لكن صديقاً للإمبراطور وهو المؤرخ «جورج فرانتزس»، أشار عليه أن يصاهر ملك الكرج «جورجيا»، عله يجد منه المساعدة وقت الحاجة، فإن الكرج بلاد بدوية رجالها أشداء أقوياء، وقبل الإمبراطور هذه المشورة، وخطب ابنة ملك الكرج، واغتبط ملك الكرج بهذه المصاهرة، ووعد أن يقدم المساعدة للإمبراطور، على أن الزواج لم يتم، وقامت الحرب بعد ذلك بين قسطنطين وبين السلطان محمد الثانى، ودفن هذا المشروع وما علق عليه من آمال تحت أنقاض القسطنطينية.

ويقال أيضاً: إن الإمبراطور قسطنطين قد فكر فى الزواج من ابنة رئيس جمهورية البندقية، لكنه ما لبث أن عدل عنه خوفاً من الرأى العام الذى كان يتهمه بالميل إلى اللاتين. بيد أن هذا العدول عن الزواج قد اعتبرته البندقية إهانة لها، فكان ذلك من أسباب تثاقلها عن نصرة قسطنطين حينما أحاطت به الأخطار واشتد الحصار على القسطنطينية.

ومن جهة أخرى لم ييأس الإمبراطور قسطنطين من معونة الغرب، وأعتقد أن اشتداد الخطر على القسطنطينة وتطويقها بجيوش إسلامية سيحمل الغرب على المبادرة إلى نجدته ونصرته، فبعث إلى جميع ملوك الغرب وأمرائه يستصرخهم ويستغيثهم، كما بعث إلى البابا نقولا الخامس يستنصره وينذره: بأنه إذا سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك فإنهم سيهجمون بعد ذلك على إيطاليا نفسها، وذكر له قسطنطين قبوله لما اتفق عليه فى مجمع فلورنسه من أمر توحيد الكنيستين، واعتذر عما كان من مسلك الروم تجاهه، وكان قسطنطين فى ذلك مثل من سبقه من الأباطرة لم يقبل هذا إلا طمعاً فى نيل المعونة. أما فى قرارة نفسه فلم يكن أقل عداءً من البطريرك ومن الشعب الرومى للاتين وكل ما جاء من روما.

وفى نفس الوقت لجأ قسطنطين إلى حيلة جديدة أراد بها عدوه السلطان الشاب محمد الثانى، فما كاد السلطان يجلس على العرش ويتسلم سيف عثمان حتى بعث إليه أن يدفع من فوره مصاريف الأمير «أورخان» أسير القسطنطينية، وأن تكون مضاعفة والا فإنه سيطلق سراح هذا الأمير ويثيره عليه، ويمده بجيش من عنده ويجلسه على عرش السلطنة، مستغلاً بذلك الأحداث التى قام بها أمير القرمان ضد السلطان العثمانى الجديد.

ومن هذه اللحظة التى أنذر فيها الإمبراطور قسطنطين السلطان محمداً الثانى، عقد الأخير العزم على فتح القسطنطينية لتأمين دولته،

وابتدأ باستعدادات ضخمة، أولها بناء قلعة مواجهة لأسوارها، جلب لها مواد البناء وآلاف الفعلة والبنائين من جميع أنحاء السلطنة، واشترك بنفسه مع كبار رجال دولته فى أعمال البناء، مما زاد رغبة العمال فى العمل، فازدادت مخاوف الإمبراطور البيزنطى، واشتد هلعه، واحتج على تلك الأعمال التى اعتبرها نقضاً لما بينهما من العهود والمواثيق.

وهكذا أخذ قسطنطين ينظر من مدينته إلى القلعة الجديدة وهو جد حزين، وجعل يراها وهى تنمو كل يوم وترتفع شامخة الرأس، وكان يزيد حزنه أن يرى سفن النقل تجلب إليها الرجال ومواد البناء وهو لا يستطيع منعها أو عرقلتها. ولم تمض ثلاثة شهور حتى تم بناء القلعة فى شكل مثلث، سمك جدارها عشرون قدماً، وفى كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدماً. كما أمر السلطان أن ينصب على الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة، وأن تصوب أفواهها إلى القناة وتمنع السفن الرومية والغربية عامة من المرور، وسماها السلطان الفاتح «بوغازكش» أى قاطعة البوغاز، وعرفت فيما بعد «بروملى حصار»، أى قلعة الروم. ووقفت تجاه القلعة التى بناها السلطان بايزيد على الشاطئ الآسيوى والتى تعرف باسم «كوزل حصار» أى القلعة الجميلة، أو «أناضولى حصار» بمعنى قلعة الأناضول.

وهكذا كان التخطيط العسكرى الماهر للسلطان محمد الفاتح الذى استطاع بالفعل أن يكون فاتح القسطنطينية وصاحب البشارة النبوية.

(6)
المواجهة بين السلطان محمد الفاتح والإمبراطورية البيزنطية

كانت النتيجة الحتمية لبناء قلعة «رومللى حصار» ومحاولات الرومانيين هدمها والاعتداء على عمالها، أن أعلن السلطان الحرب رسميّاً على الدولة الرومانية، وعين «فيروز آغا» قائداً للقلعة الجديدة ومعه أربعمائة من خيرة جنود الانكشارية، وأمره ألا يسمح لأية سفينة أجنبية بالمرور ألا بعد تفتيش دقيق ودفع الضريبة، وأن أبت أطلق عليها القذائف. وأخذت حامية الحصن تنفذ خطتها بانتظام، وفرضت سيطرتها التامة على المنطقة المحيطة بها، وأدرك الإمبراطور قسطنطين أن محاولاته للمحافظة على السلام بأى ثمن لن تفيده شيئاً، فلا شئ يرضى العثمانيين غير القضاء على ملكه وغير الاستيلاء على مدينته، فأغلق أبواب القسطنطينية وبعث إلى السلطان محمد الثانى بما عزم عليه فى رسالة خطية يقول فيها: «لما كان من الجلى أنك تريد الحرب أكثر من السلام، ولما كنت غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصى واستعدادى لأن أكون لك تابعاً، لذا فالأمر لله وسأوجه وجهى إلى الله، فإذا كانت إرادته تقضى بأن تصبح هذه المدينة مدينتك، فلا مرد لقضاء الله وقدره، وأما إذا ألهمك الرغبة فى السلام فسأكون سعيداً ما بقيت، ومع ذلك فإنى أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معى، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبى إلى آخر قطرة من دمى...».

وقبض الإمبراطور قسطنطين على كل الأتراك الموجودين داخل المدينة عندما أرسل إليه السلطان إعلان الحرب، وظهر السلطان

العثمانى فجأة بجيش يبلغ خمسين ألفاً إلى جوار أسوار المدينة، ثم رجع هو إلى أدرنة بعد أن أعطى تعليماته وأوامره لقواده، ولم يقم الرومانيون بأية حركة معادية، وكان غرض السلطان من هذه العملية التى دامت ثلاثة أيام الاستطلاع، والتعرف على أسوار المدينة وأبراجها، واختبار مدى قوتها واستعداداتها.

رجع السلطان إلى أدرنة ليتم استعداداته، وعمل على منع أخوى الإمبراطور «توماس وديمتريوس» حاكمى شبه جزيرة المورة من مساعدة أخيهما الإمبراطور قسطنطين. وأرسل السلطان جيشاً قوياً بقيادة «تورخان» فاكتسح شبه الجزيرة الإغريقية من أدناها إلى أقصاها، وتمكن من وقف أى إمدادات تتجه إلى المدينة المحاصرة، وفى تلك الأثناء قويت عند السلطان محمد الثانى فكرة فتح القسطنطينية، وسيطرت هذه الفكرة على جميع جوارحه حتى أنه كان لا يتحدث إلا فى هذا الأمر، ولا يأذن لأحد ممن يجالسه بالتحدث فى غير هذا الموضوع، وحتى أصبح أمر الفتح همه الذى يشغله بالليل والنهار، بل قد أرقه وحرمه النوم.

وفى نفس الوقت كان الإمبراطور الشاب قسطنطين وزمرة من شجعان أهل القسطنطينية قد أخذوا فى تحسين المدينة وإعداد وسائل الدفاع التى قدروا عليها، وكان أول عمل لهم إصلاح الأسوار المهدمة التى أبلاها الدهر وتصدعت أمام إغارات المغيرين المتكررة، واستخدموا أحجار القبور والكثير من الآثار القديمة

والمنازل المتهدمة لهذا الغرض، وجمع ما عند الناس من الذخائر والأسلحة بكل سرعة، وكذلك الغلال والمؤن والزيت. وأرسل الإمبراطور البعثات الصارخة إلى أوروبا تطلب النجدة، واستمر ذلك طوال شتاء عام 1452م. وكان معظم سكان المدينة قد فقدوا الأمل فى وصول أية نجدة، وإن كان النصارى فى أوروبا قد ظلت لديهم بعض الآمال فى حدوث معجزة تنقذ حصن النصرانية الشرقى.

ظهور بوادر الحرب

بدأت بوادر الحرب تظهر منذ شهر فبراير 1453م، وذلك إثر اتمام تجهيزات السلطان واستعداداته للهجوم، وتنظيم وسائله وخطوط مواصلاته وتأمين خلفية جيشه، فقد جمع جيشاً عظيماً ذكر بعض المؤرخين أنه بلغ ربع مليون، وأنشأ أسطولاً ضخماً، وملأ حصونه بالأسلحة والذخيرة، وبدأت الحرب الفعلية عندما هاجمت السفن الإغريقية الشواطئ التركية الإسلامية، فأخذت من قدرت عليه، وقتلت من قتلت، وخربت ما استطاعت، وباعت فى الأسواق ما غنمته، ولم تدع من أذاها مسلماً أو نصرانيّاً، وهجموا على الكنائس والمساجد ينهبون ما فيها من كنوز وتحف، ودمروا مدينة أزمير تدميراً تامّاً وأشعلوا فيها النار، فلما علم السلطان بذلك ازداد تصميماً علىَ فتح المدينة وأقسم لينتقمن لسكانها أشد انتقام.

وبدأت ترد إلى القسطنطينية نجدات بسيطة، هدأت بعض الشىء من روع سكانها، فجاءت سفينتان بندقيتان استطاعتا أن تمرا إلى البوسفور وتلقيا مراسيهما فى مياه القرن الذهبى.

وجاء الكاردينال «إيزيدور» مبعوث البابا فى روما ومعه مائتا مقاتل لنجدة المدينة ولإتمام توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وتبعته ثمانى سفن من جزيرة «كريت» تحمل النبيذ للمحاصرين.

ثم جاء المغامر الجنوى «جون جستيانى» على سفينة محملة بالمؤن والذخائر ومعه سفينة أخرى جملة رجالها سبعمائة مقاتل، وقد استقبله الإمبراطور قسطنطين استقبالاً عظيماً، وعينه قائداً عامّاً للقوات المحاصرة. وأخذ «جون جستنيانى» -الذى قدم متطوعاً للدفاع عن حصن النصرانية الشرقي- على عاتقه من وقت تعيينه أمر تنظيم الدفاع عن القسطنطينية، فنظم وضع مدافعه الصغيرة على الأسوار فى نقط معينة، وقسم المدافعين حسب شعوبهم وأجناسهم، وخصص لكل واجباته، وقام بتدريب الرهبان المدنيين الذين يجهلون فن الحرب كلية، وليس لديهم من وسائلهم إلا الحماس لها والرغبة فى قتال المسلمين لإنقاذ مدينتهم وحصن ديانتهم.

وكلف الإمبراطور قسطنطين جون جستنيانى وأتباعه بمهمة الدفاع عن النقط الخطرة والأبواب المهمة، وأجمعت كلمة الجميع: لاتين واغريق وبنادقة وجنويين، كاثوليك وارثوذكس على ضرورة الدفاع عن المدينة إلى اخر رمق فى حياتهم.

وقرر الإمبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبى أمام السفن القادمة تبدأ من طرف المدينة الشمالى وتنتهى عند حى غلطه، تلك المدينة الجنوية المستقلة التى ترك لسكانها أمر حمايتها عند طرفها الشمالى، وهذه السلسلة هى التى وقفت أمام الأسطول التركى، وعملت على حماية السفن التى تجمعت وراءها، وكان لها شأن كبير ودور مهم فى الدفاع عن المدينة المحاصرة.

أما الأتراك فكانت استعدادتهم عظيمة، فقد استطاع السلطان محمد الثانى تدمير كل القرى المجاورة للقسطنطينية، ففقدت المدينة الكبيرة الاتصال كلية بالبلاد المجاورة لها، وكان عليها أن تعتمد على المؤن والذخائر والقوة الموجودة بداخلها، وكان الجنود العثمانيون -النظاميون وغير النظاميين- قد تجمعوا فى «أدرنة» عاصمة السلطان الأوروبية، ومعسكر الترك الكبير، وكان بين الجند العثمانيين عدد كبير من النصارى الذين لا هم لهم غير القتال والسلب والنهب، وكان حماس الجيش العثمانى للقتال عظيماً وكان رجاله قد سيطرت عليهم فكرة الجهاد فى سبيل الله، وإعزاز دينهم، ورغبوا فى الشهادة، وتطلعوا إلى المثوبة العظمى من الله سبحانه، ووثقوا بالنصر المؤزر وشاركهم فى ذلك الشيوخ والعلماء وشدوا من أزرهم وبثوا فيهم الروح القوية وحضوهم على الجهاد وإخلاص النية. أما السلطان، فقد كان أكثر رجاله يقظة وأكثرهم اهتماماً وتفكيراً فى أمر المعركة، ولم يغمض له جفن لفرط اهتمامه فى هذا الشأن.

السلطان محمد الفاتح والمدفع السلطانى

وفى تلك الأثناء حضر إلى السلطان الفاتح المهندس المجرى «أوربان» فاراً من وجه قسطنطين وعرض عليه أن يصنع له مدافع تدك أسوار القسطنطينية - وكان هذا الرجل قد عرض خدماته على الإمبراطور قسطنطين، فلم يمنحه المكافأة التى كان ينتظرها نظراً لفقر المدينة وحالة أسوارها السيئة التى ما كانت تسمح بوضع مدفع كبير عليها - فاستقبله السلطان استقبالاً حسناً، وأغدق عليه الأموال، وعرف كيف يستفيد منه أكبر استفادة وسهل له كل الوسائل لإتمام اختراعه، ووضع تحت تصرفه ما طلبه من آلات وفنيين. وشرع «أوربان» فى صنع المدافع يعاونه فى ذلك المهندسون الأتراك ويشرف عليهم السلطان بنفسه.

وبعد ثلاثة أشهر أتم «أوربان» صنع عدد من المدافع، وكان من بينها مدفع ضخم عملاق لم ير مثله قط، فقد كان يزن سبعمائة طن، وتزن القذيفة الواحدة اثنى عشر ألف رطل، ويجره مائة ثور يساعدها مائة من الرجال الأشداء، ويزحفون به زحف السلحفاة. وعندما أرادوا تجريته لأول مرة فى أدرنه أنذر السلطان سكان المنطقة، فسمع دويه على بعد ثلاثة عشر ميلاً، وسقطت قذيفته على بعد ميل، وصنعت حفرة فى الأرض عمقها ستة أقدام. وقد قطع هذا المدفع - الذى

أسماه الترك «المدفع السلطاني» - الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية فى شهرين اثنين. وسر السلطان محمد الثانى بنجاح التجربة، وأجزل العطاء لهذا المهندس وللمهندسين الأتـراك، وزادت ثقة السلطان وجنده بالنصر، وأيقنوا أنهم سوف يحققون هدفهم الكبير بفتح القسطنطينية وإسقاط دولة الرومان.

بدء القتال بين الجانبين

لم يخف على الإمبراطور قسطنطين استعدادات الأتـراك، خاصة عندما ظهر الجيش العثمانى فى الخامس من شهر أبريل 1453م أمام أسوار القسطنطينية وأمامه العلماء والأشراف من آل بيت رسول الله ﷺ، وبدت الفرق العثمانية بجانب بعضها البعض فى أعلامها وطبولها وأبواقها وموسيقاها وخيلها ومدافعها ودواب الحمل الكثيرة العدد. ونصب السلطان سرادقه ومركز قيادته محاطاً بالخنادق على الشاطىء الأيسر لوادى نهر «ليكوس» أمام باب القديس «رومانوس» حيث سلطت عليه المدافع القوية البعيدة المدى، ثم اتجه السلطان إلى القبلة وصلى ركعتين وصلى الجيش كله وبدأ يعد العدة للحصار الفعلى.

نسق السلطان قواته تنسيقاً دقيقاً طبقاً لخطة حربية محكمة، اشترك معه فى وضعها كبار قواد الدولة وقادة الوحدات، وكانت الخطة تقضى بأن يتعاون الفرسان مع المشاة مع المدفعية، والجنود النظامية والفرق الخاصة مع الجنود غير النظامية فى

حصار المدينة والهجوم عليها. ووضع السلطان بناء على هذه الخطة الفرق الأناضولية - وهى أكثر الفرق عدداً - عن يمينه إلى ناحية بحر مرمرة، ووضع الفرق الأوروبية على يساره، وامتدت حتى القرن الذهبى، والتف الحرس السلطانى المكون من نخبة الجنود الإنكشارية وعددهم خمسة عشر ألفاً حول السلطان فى الوسط، وكان واجبهم تعضيد الهجوم فى جبهة باب القديس «رومانوس» وعملية اقتحام المدينة من هذه الناحية وهى أضعف نقطة فى الدفاع. وجمع السلطان أسطولاً عظيماً مكوناً من 350 سفينة بين كبيرة وصغيرة فى مدينة «جاليبولى» قاعدة العثمانيين البحرية فى ذلك الوقت، وصدرت إليه الأوامر بعبور بحر مرمرة إلى البوسفور حيث ألقى مراسيه هناك وانضمت إليه بعض القطع الحربية العثمانية من البحر الأسود وأصبح منظره ومنظر الجيوش المحاصرة يوحى بالقوة والعظمة والمجد الشامخ.

استراتيجية فتح القسطنطينية

كانت القسطنطينية مثلثة الشكل، جانب منها على بحر مرمرة، وجانب على ميناء القرن الذهبى، ويمتد على طول كل منها سور واحد، أما الجانب الثالث فيقع فى الجبهة الغربية ويصل القسطنطينية بأوروبا، وكان لها هناك سوران طولهما أربعة أميال، يمتدان من شاطىء بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبى، ويبلغ ارتفاع السور الداخلى منهما نحو أربعين قدماً، وقد دعم بأبراج طولها ستون

قدماً، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدماً.

ويبلغ ارتفاع السور الخارجي نحو خمس وعشرين قدماً، وقد حُصِّن أيضاً بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول وان كان أصغر من سابقه حجماً، وبين السورين فضاء يبلغ متوسط عرضه ما بين خمسين وستين قدماً. ويقع أمام السور الخارجي سور ثالث ليس بذي قيمة، سهل الاقتحام ويمكن تسميته متراساً، وبين السور الخارجي والمتراس المشار إليه يوجد أرض فضاء، ثم أمام هذا المتراس خندق واسع يبلغ عرضه نحو ستين قدماً، ويعتبر هذا الخندق خط الدفاع الأول عن مدينة القسطنطينية.

وللسور الخارجي أبواب عديدة، والتي جاء ذكرها أثناء الحصار هي:

1- باب أدرنه.

2- باب المدفع (طوب قبو)، وكان يسمى قديماً باب القديس رومانوس.

3- الباب العسكري.

وأقام السلطان محمد الثاني مع جنوده المختارة تجاه هذا السور وجعلهم ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

الميمنة: وتتألف من جنود الأناضول بقيادة إسحاق باشا ومحمود بك، ويمتد من الساحل الجنوبي لدفاعات المدينة عند بحر مرمرة إلى باب «طوب قبو».

القسم الثانى:

الميسرة: وتتألف من جنوب أوروبا والمتطوعين والجنود غير النظامين بقيادة «قره جه باشا» ويواجه جزءاً من السور يمتد من أقصاه الشمالى عند ميناء القرن الذهبى إلى باب أدرنة.

القسم الثالث:

القلب: ويتألف من جنود الإنكشارية، والجنود المختارة التى تتكون منها الفرق الخاصة والانتحارية بقيادة السلطان محمد الثانى نفسه، ويواجه من السور الجزء الأوسط منه الذى يمتد من باب «طوب قبو» إلى «باب أدرنة» «أدنه قبو».

مركز القيادة:

أقامها الفاتح خلف القلب.

وعسكر زغنوس باشا الألبانى مع فرقته فى المرتفعات المشرفة على حى غلطة لمراقبة الجنويين ضمنها، ومنعهم من إمداد القسطنطينية، ومراقبة الشاطئ الشمالى من القرن الذهبى، وكانت فرقة زغنوس باشا معدة كاحتياطى للاشتراك فى الهجوم على المدينة من ناحية البر عند الحاجة. ونصب السلطان محمد أمام السور البرى المدافع والمجانيق وأحكم وضعها وتنسيقها، وكانت هناك أربعة عشرة بطارية مدفع، فى كل واحدة منها أربعة مدافع، نصبت الكبيرة الضخمة أمام باب القديس رومانوس، وعرف هذا الباب - فيما بعد - بطوب قبو أى باب المدفع، تذكاراً لهذا المدفع السلطانى.

استعدادات الإمبراطور قسطنطين لمواجهة محمد الفاتح

كانت أسوار القسطنطينية بالرغم من الخراب الذى لحق ببعض أجزائها على مر العصور منيعة، تمتد من القرن الذهبى إلى بحر مرمرة. وكان يقوم فى كل زاوية من ذلك السور حصن قوى، وقد وقف أمام الجيش العثمانى ومدفعيته الحديثة الهائلة الشديدة الانفجار والقوية التأثير، وأمام الاسطول التركى الكثير العدد، عند باب القديس رومانوس - أخطر نقطة فى السور - ثمانية آلاف من المدافعين، يعاونهم عدد كبير من سكان المدينة الذين جندوا للدفاع عنها، أو لمساعدة الدفاع ونقل أدواته، وترميم الأجزاء التى تخربها أو تهدمها المدافع العثمانية.

وكانت هناك فرقة الأجانب المكونة من ثلاثة آلاف مقاتل، وتتألف من محاربين: جنويين وبنادقة وعناصر من كريت وروما وإسبانيا، وقد قدم هؤلاء جميعاً للدفاع عن المدينة، وتقديم المساعدة الحقيقية فى هذه المحنة الرهيبة، أما الدوافع: فربما كانت دينية، وربما كانت مادية تجارية، وربما كانت حب المخاطرة والمغامرة وركوب الصعب. وقد تكون هذه الدوفاع مجتمعة وراء ذلك.

وعسكر الإمبراطور قسطنطين فى مواجهة السلطان الفاتح،

وحشد جنوده فى ناحية منتصف الوادي وهى المنطقة الضعيفة فى الأسوار عند باب القديس رومانوس، وبدأ يعقد المجالس العسكرية لتنظيم أمر الدفاع عن المدينة وأخذ المشورة من كبار قادته، وعهد إلى جون جستنيانى بمهمة الدفاع عن هذه الناحية.

وكان تسليح المحاصرين بصفة عامة سيئاً، فلم يكن لديهم السلاح الكافى ولا السلاح الجيد الحديث، ولم يكن لديهم أيضاً مدفعية قوية، وحتى مدافعهم الصغيرة القصيرة المرمى فإنهم لم يستطيعوا نصبها على الأسوار خشية ألا تتحملها ولا تتحمل أصوات انفجاراتها.

وقد اتفق الكُتاب المعاصرون من الروم على وجه يشبه الإجماع أن المدافعين عن مدينة القسطنطينية كانوا ثمانية آلاف مقاتل، وكاد يجمع المؤرخون المحدثون من الأوروبيون على الأخذ بهذا التقدير ويذكرون أن نصفهم كان من الروم والنصف الآخر من اللاتين، أما المؤرخون الأتراك فيقدرون عدد المدافعين بأربعين ألف مقاتل يقف إلى جانبهم هذا السور الضخم المنيع العملاق، وذكروا أن حدة النزاع فى المدينة بين الروم واللاتين قد هدأت وأن الخطر المحدق بالمدينة نساهم خصوماتهم، فالتفوا حول الإمبراطور يشدون من أزره وعقدوا العزم على الموت دفاعاً عن مدينتهم.

وهنا يجب أن نشير إلى موقف مستعمرة غلطة الجنوية، جارة القسطنطينية من جهة الشمال، فنقول إنها وقفت موقف الحياد

التام حرصاً على ذلك السلطان الشاب القوى، وتمسكت بهذا الحياد فلم تساعد أحدًا من الفريقين ولم تنصر أحدهما على الآخر.

وقد بعث الإمبراطور قسطنطين إلى السطان محمد الثانى يحاول صرفه عن الحرب لكن السلطان العثمانى قال للرسل: «فليسلِّم لى إمبراطوركم القسطنطينية وأقسم بأن جيشى لن يتعرض لأحد فى نفسه وماله وعرضه، ومن شاء بقى فى المدينة وعاش فيها فى أمن وسلام ومَنْ شاء رحل عنها وذهب حيث أراد فى أمن وسلام أيضاً. ومن ذلك أيقن قسطنطين أن الحرب لابد واقعة، فحاول تخريب القلعة «روملى حصار»، ولكن الأتراك تصدوا للروم الذين قاموا بهذه المحاولة وردوهم على أعقابهم خائبين.

واشتد ذعر الإمبراطور وأيقن أن نهايته قد قاربت وأن مصيره أصبح معلقاً بيد سلطان العثمانيين، فأمر بإغلاق أبواب المدينة، وقبض على جميع من فيها من الأتراك وكان فيهم بعض غلمان السلطان محمد الثانى، فأطلق قسطنطين سراحهم وردهم إلى سيدهم، ولم تقفل أبواب القسطنطينية إلا بعد أن نقضت الهدنة.

وأخذت مدافع العثمانيين بعد أن أحكم وضعها وتسديدها تطلق قذائفها الهائلة على السور وظلت على ذلك ليلاً ونهاراً لا تكاد تنقطع. وكان يسمع لاصطدام القذيفة بالسور دوى هائل، يملأ قلوب أهل القسطنطينية رعباً وفزعًا، وبخاصة فى ساعات الليل الهادئ، ويملأ الفضاء بسحب الدخان والتراب. ووجم الناس فى

القسطنطينية، وانتابهم نوع من الفزع، وما ظنوا قطن أن للمدافع كل هذا الأثر، واستبسل الجنود المتحاربان: المهاجمون والمدافعون في القتال والنزال، فكان البيزانطيون وعلى رأسهم جون جستنيان والإمبراطور لا يكاد يهدم جانب من السور حتى يسرعوا إلى إصلاحه وترميمه، وكان المحاصرون لا يتوقفون عن رمي قذائفهم على السور، ويندفعون بين الحين والحين لاقتحامه على رأسهم جنود الإنكشارية الذين أظهروا شجاعة نادرة وإقداماً فائقاً ولم يبالوا بالموت.

استطاعت المدافع العثمانية بقذائفها المتواصلة والمؤثرة أن تهدم جزءاً من السور عند وادي ليكوس، وقد امتلأ الخندق بأنقاض السور المتهدم، فاندفع الجنود العثمانيون نحو الثغرة، وتسلقوا السور والسلالم، ووصل بعضهم إلى نقاط فوق السور، وكاد يتم إهدام السور لولا أن جون جستنيان قذف بجميع جنده المدربين إلى القتال، واشتد القتال بين الجانبين وارتفعت الصيحات من الجانبين، وانهمرت على الأتراك العثمانيين السهام من كل جهة، واستمر قتال عنيف إلى أن أظلم الليل، فأمر السلطان محمد الثاني جنوده بالانسحاب بعد أن خبر قوة المدافعين وأسلحتهم.

وفي نفس الوقت كانت السفن العثمانية تعمل على تحطيم السلسلة القائمة على مدخل القرن الذهبي واقتحامه، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية كانت بالحراسة والواقفة وراء السلسلة، كانت أكثر قوة فسهل عليها اصطياد السفن التركية، وصب قذائفها عليها وردتها خائبة.

وكان الاسطول العثمانى محملاً بكل وسائل الحرب المعروفة فى ذلك الوقت، ويحمل المحاربين، وتسير معظم سفنه بالمجاديف، إلا أن رجال السفن العثمانية وعلى رأسهم قائدهم «بالطه أوغلى» لم تكن على الدراية الكافية ولا الخبرة الممتازة فى الحروب البحرية، كما أصابهم ذلك بعض الزهو والغرور لكثرة عدد سفنهم، ولم يقدروا ما هذه السفن البيزنطية من قوة قتالية وخبرة عملية ومعرفة بأمور الحرب البحرية وما أن رأت القطع البحرية العثمانية أعداءها، وألقت بأحجارها فأندفعت بأسهمها النارية عليها، وطرحت على سفن العثمانيين قوارير النفط المشتعلة اقتربت من سفن الخصوم تحاول إحراقها وتدميرها وقطع شراعها ومراسيها، لكن سفن البيزنطيين وحلفائهم أظهرت بطولة وخبرة كبيرين، فكانت تصيب سفن العثمانيين ولا تستطيع سفن العثمانيين الرد بسهولة، على الرغم من استعدادها الحربى الكبير، كان اشتباك دارت فيه الدائرة على السفن التركية، ولم تجد شجاعة أفرادها شيئاً أمام قوة العدو ونيرانه الإغريقية الفتاكة، فاضطر الأسطول العثمانى إلى الانسحاب تتبعه صيحات البيزنطيين المعبرة عن فرحهم.

واغتبط أهل القسطنطينية فرحًا فى صد الأتراك فى البر والبحر، واشتد ساعدهم، وذهب الإمبراطور قسطنطين إلى كنيسة «سانت صوفيا» وصلى صلاة الشكر. أما السلطان محمد الثانى فلم يستسلم لهذا الفشل، بل زاده ذلك تصميماً على بلوغ هدفه دفة القسطنطينية.

ثم حدث فى 20 أبريل فى نفس العام، أن ظهرت فى بحر

مرمرة خمس سفن إفرنجية: أربع منها بعث بها البابا لمساعدة القسطنطينيين ومساندة للإمبراطور قسطنطين نفسه كانت تحمل جنوداً وأغذية وسلاحاً، ورأى الأتراك هذه السفن الخمس. عند ذلك أمر السلطان العثمانى قائده البحرى «بالطه أوغلى» بمهاجمة هذه السفن بعد مباغتتها فلا أقل من منعها من الوصول إلى المدينة (مدينة القسطنطينية) كما أعطى السلطان محمد الثانى أمره العسكرى لقائده (بالطه أوغلى) فى ذلك فلا ترجع لى حيّاً».

عند ذلك طلب القائد العثمانى (بالطه أوغلى) السفن التسليم وإلا يصيبها الدمار فى الحال السفن الخمسة رفضت بإباء الانصياع لذلك ودارت معركة بحرية حامية بين السفن الخمس والسفن البيزنطية وراء السلسلة المطلة على مدخل القرن وكانت السفن العثمانية الكثيرة العدد المنتشرة فى المنطقة، وزاد الصخب، وعم الفرح الأتراك نتيجة اندافعهم واستماتتهم فى القتال الريح فجأة، فتحول الموقف لصالح الأتراك تمامًا واشتدت المعركة ضراوة حتى تلاحمت السفن. وكانت أعداد السفن المشتركة فى هذه المعركة كانت كثيرة جدًا لم تحرز سفن الأتراك نصرًا رغم فداحة الخسائر بل كانوا يندفعون إلى الأمام فى حماسة فائقة، لتصرعهم القذائف الحجرية والنارية القادمة من سفن البيزنطيين.

وكان السلطان محمد الثانى يقف على شاطىء غلطة ينظر إلى هذا الصراع الدامى بعين لا تطرف، وهو لا يكاد يستقر فرق ظهر

جواده، فلما رأى ما نزل بسفنه ، ورجاله من القتل والتمزق لم يتمالك نفسه، فاندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره. وكانت السفن على مرمى حجر منه، وكان يلوح لبالطه أوغلى بأعلى صوته «يا قبطان، يا قبطان».

وغابت شمس ذلك اليوم، وأرخى الليل سدوله، والمعركة لا تزال حامية الوطيس. وفجأة هبت الريح من الجنوب قوية، فنشرت السفن الخمس أشرعتها، ومرت من بين السفن التركية بخفة وقوة، متجهة إلى القرن الذهبي، حيث أنزلت السلسلة الضخمة، وسرعان ما شدها الروم مرة أخرى ووصلت السفن إليهم سالمة وسلم بحارتها. وهكذا انتهت هذه المعركة البحرية والتى سميت «معركة غلطة البحرية» - تمييزاً لها عن المعركة التالية التى حدثت فى القرن الذهبى نفسه بخسارة فادحة فى السفن والمقاتلين البحارة الأتراك، وخرج السلطان محمد الثاني من الماء، وقد ابتلت أطراف ثيابه، وعلاها ماء البحر الممزوج بالدم، وعاد إلى معسكره وهو مطرق فى صمت مفيظ، وهدوء يسبق العاصفة.

أما أهل القسطنطينية فقد غمرتهم موجة من الفرح الكبير بما أحرزوه من نصر، وقويت عزيمتهم على الصمود، ولاح لهم أنهم سيهزمون الأتراك ويردونهم عن الأسوار، وأنها أيام وتتقشع الغمامة من فوق مدينتهم، وأقاموا مواكب الأفراح فى المدينة، ودقت الأجراس فى الكنائس، وظل الناس طوال الليل ينشدون الأناشيد المقدسة، فيتردد صداها فى معسكر الترك، الذى كان يعد العدة

لدحر عدوه مهما كلفه ذلك من جهد ورجال.

واستمرت المدفعية التركية تواصل إطلاق قذائفها ليلاً ونهاراً وتحدث دوياً هائلاً، وتدك أسوار المدينة، وفي نفس الوقت استمر السلطان محمد الثاني في رسم الخطط، وابتكار الجديد منها مع أركان حربه، وهداه فكره وخبرته العسكرية إلى أنه لابد من تحديد المعركة وإجبار العدو على خوضها.

معركة القرن الذهبى البحرية

أخذ السلطان محمد الثانى يبحث عن وسيلة لإدخال سفنه فى القرن الذهبى نفسه، من أجل السيطرة على هذا الميناء الاستراتيجى المهم، وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها، وإضعاف الدفاع عن السور البرى، وبعثرة القوات الرومية وتشتيتها، وكذلك تشديد المراقبة على سكان مدينة غلطه من الجنويين أصحابها والمسيطرين عليها، ثم تسهيل المواصلات مع قاعدته فى «روملى حصار». وقد حاولت السفن العثمانية عدة مرات تحطيم السلسلة الضخمة القائمة عند مدخل الميناء فلم توفق، لقوتها ومناعتها وإحكام الدفاع عنها. وكان أحد طرفى السلسلة يقع فى شاطىء غلطة مدينة الجنويين، وكانت العلاقة بينهم وبين السلطان العثمانى علاقة سلام ممزوج بخوف من المستقبل المجهول، إذا ما استولى العثمانيون على المدينة الخالدة، وعلى ذلك فكانوا يميلون بعواطفهم نحو الروم ويتمنون لهم النصر، ولاحت للسلطان فكرة بارعة وهى نقل السفن من مرساها فى بشكطاش إلى القرن الذهبى، وذلك بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين مبتعداً عن حى غلطة خوفاً على سفنه من الجنويين، وقد كانت المسافة بين الميناءين نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة

سهلة ولكنها كانت وهاداً وتلالاً غير ممهدة.

ولم تستغرق دراسة الخطة سوى عدة ساعات من وقت السلطان، فاطمأن قلبه إليها حتى لكأنها وحى ألهمه، وجمع الفاتح أركان حربه وعرض عليهم فكرته، وحدد لهم مكان معركته القادمة، فتلقى منهم كل تشجيع، وأعربوا عن إعجابهم بها. وبدأ تنفيذ الخطة، وأمر السلطان محمد الثانى فمهدت الأرض وسويت فى ساعات قليلة وأتى بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء فى المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة، إلا أنه بصفة عامة كانت السفن العثمانية صغيرة الحجم خفيفة الوزن.

تم هذا المشروع العسكرى العظيم بسرعة، وقبل أن يستطيع البيزنطيون التدخل والعمل على إتلاف السفن، واستطاع السلطان محمد الثانى فى 22 أبريل من نفس العام 1453م أن ينجح فى نقل سبعين سفينة من البوسفور إلى القرن الذهبى. وضماناً لسلامة قواته البحرية ظلت المدفعية تطلق قذائفها طوال اليوم الحادى والعشرين فتقع فى القرن الذهبى، ولم تمكن السفن البيزنطية ولا القوات البحرية من التدخل الفعلى أو حتى مجرد الرد على مصادر نيران العثمانيين، وقد أصيبت من جراء ذلك احدى السفن البيزنطية فغرقت، وجنحت بقية السفن إلى أسوار غلطة واحتمت تحتها. وفى نفس الوقت حاولت السفن العثمانية الموجودة خارج الميناء تحطيم السلسلة ولكنها كانت صامدة منيعة. ومن ناحية

أخرى ضاعفت المدفعية القائمة تجاه السور البرى للقسطنطينية ضرباتها القوية، وكان هدف هذه الضربات: هدم الأسوار، وإضعاف الروح المعنوية للروم، وإرهاقهم وإقلاقهم.

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذى حدث فيه، بل معجزة من المعجزات، تجلى فيها سرعة التفكير وسرعة التنفيذ، ولو أن فكرته ليست من مبتكرات ذهن السلطان محمد الثانى، فهى فكرة قديمة استخدمت فى الماضى، ولكن تطبيقها وتنفيذها بهذه السرعة وبهذه الدقة يدل بلا شك على عقلية ممتازة، ومهارة فائقة، وهمة عظيمة.

ونجحت خطة السلطان محمد الثانى فى صرف انتباه الروم والجنويين عن خطته العظيمة، ودهشوا دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ما تم. لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها اثارة ودهشة. ويرجع الفضل كل الفضل فى ذلك إلى همة السلطان وموهبته، وإلى مقدرة المهندسين الأتراك، وكثرة الأيدى العاملة التى قامت بتنفيذ ذلك المشروع الضخم بحماس ونشاط.

ولقد تم كل ذلك فى ليلة واحدة، واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم 22 أبريل على تكبيرات الأتراك المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم العالية، وموسيقاهم العسكرية، وأطلوا من

فوق أسوارهم، فرأوا تحت أعينهم سبعين سفينة عثمانية فى الميناء برجالها ومعداتها، وانتشرت بين أهل القسطنطينية نبوءة تقول: «ستسقط القسطنطينية عندما تُرى سفن تمخر على اليابسة».

وهكذا أصبحت السفن البيزنطية فى توجس دائم وحذر لا ينقطع، وظلت على هذه الحال إلى آخر الحصار، واضطر الإمبراطور قسطنطين إزاء هذا العمل العسكرى الرائع أن يغير خططه ومواضع أجناده، ويضع فى هذا الجانب من السور عدداً كبيراً من الجند لمراقبته، ثم دعا جستنيان وبعض كبار رجال الجيش واجتمع بهم وشاورهم فى أمر السفن العثمانية المرابطة فى ميناء القرن الذهبى، واجتمع رأى المؤتمرين على وجوب التخلص منها وذلك بمباغتتها فى جوف الليل وإحراقها.

وأسند الإمبراطور إلى «جاكومو كوكو» قيادة هذه الحملة التدميرية، وأخذ يعد لذلك، وتسرب الخبر إلى أهل غلطة، فأبلغوه إلى السلطان محمد الثانى، وأطلعوه على دقائق الخطة وكيفية تنفيذها، كما طلبوا من الإمبراطور البيزنطى والمؤتمرين تأجيل هذه العملية ليوم آخر، حتى يمكنهم الاشتراك معهم فيها. وفى فجر يوم 24 أبريل بعث الجنويون - سكان غلطة - مرة أخرى إلى السلطان العثمانى ينبئونه بما تم بين المؤتمرين، فبعث السلطان من فوره عدداً من الجند ومعهم المدافع والعدة اللازمة لاقتناص السفن واصطياد العدو.

وفى يوم 28 أبريل غادرت السفن البيزنطية ميناء غلطة للانقضاض على السفن التركية الراسية فى القرن الذهبى، ولكن لم تكد السفن البيزنطية تقلع من مراسيها وترفع أشرعتها، حتى لمح ضوء نار أشعلت فجأة فى قمة برج غلطة، كأنماكانت تنذر الأتراك بإقلاع السفن البيزنطية، واقتربت السفن حتى كادت تلمس بعضها البعض، واندفع القائد «كوكو» بسفينته حتى يكون له شرف السبق فى تدمير السفن العثمانية، ولم تكد تقترب من غرضها وهدفها حتى داهمتها قذيفة ضخمة، أعقبتها قذيفة أخرى فلقتها فلقتين وغاصت فى الماء. وظنت بقية السفن البيزنطية أن سفينة قائدهم «كوكو» مازالت تجد فى سيرها، وترمى بقذائفها السفن التركية - وقد كان دوى المدافع وصوت الانفجارات يغطى جو المعركة - وتقدمت سفينة أخرى فداهمتها أيضاً قذيفة فحرقتها وأصابتها بعطب كبير فهرع بحارتها وعادوا بها مسرعين وقد مالت إلى الغرق ونجوا من موت محقق. واضطرت بقية السفن البيزنطية - إزاء ما حل بسفينة القيادة وزميلتها - إلى الفرار بحالة من الذعر شديدة وخافت من القذائف التى أخذت تلاحقها، وقبض الأتراك على بعض بحارة السفينة الغارقة الذين لم يتمكنوا من الهرب فقتلوهم، فانتقم الإمبراطور قسطنطين لذلك، وعلق على أسوار القسطنطينية رؤوس مائتين وستين من أسرى العثمانيين المسلمين.

وجهز الإمبراطور قسطنطين حملة ثانية لحرق السفن العثمانية بقيادة «جستنيان» ولكنها فشلت كما فشلت الحملة السابقة، وتفوق

الأسطول التركى على السفن الرومية العملاقة، وكاد جستنيان أن يقع فى الأسر لولا أن أسرع بالفرار وهو لا يكاد يصدق أن ينجو.

وكان لهذه الهزيمة التى مني بها الروم أثر سيىء فى نفوس المحاصرين، وحزن لذلك الإمبراطور قسطنطين والقائد الجنوى جستنيان، فقد فشلت الآمال وتحطمت، وضاع جانب كبير من الثقة بالنفس، وظهرت بوادر الفشل والهزيمة على وجه كل من الإمبراطور والقائد، وقام نزاع حاد بين البنادقة والجنويين فى المدينة، وصل إلى حد الصدام المسلح واللكم بالأيدى والبصق فى الوجوه، وتحزب لكل من الفريقين بعض الأهالى بين مناصر ومعاد، واتهم كل فريق الآخر بأنه سبب الفشل البحرى، وكادوا يقتتلون لولا تدخل الإمبراطور قسطنطين فى الوقت المناسب، وقام الإمبراطور بنصح زعماء الفريقين وناشدهم بالنصرانية التى يدينون بها أن يراعوا قبل كل شىء المصلحة المشتركة التى توجب عليهم التعاون لرد الخطر الكبير الذى يتهددهم جميعاً.

واستمر الأتراك فى دك أسوار المدينة تنفيذاً للخطة المرسومة والتى تقتضى نقبها، واستمر البيزنطيون فى محاولة إصلاح ما ينهدم من السور ليل نهار، ويحاولون جهدهم سد الثغرات وإفراغ الخنادق من الأنقاض، وازداد مركزهم ضعفاً على ضعف، فعددهم قليل وعملهم شاق مجهد، علاوة على تناقصهم المستمر، وكان عليهم الدفاع عن أسوار طويلة ضعيفة مهدمة أمام مدفعية متفوقة وعدو لا يرحم. واستمر الحال على هذا النحو إلى آخر اليومين

الأولين من شهر مايو - أيار - سنة 1453م، وبدأ يظهر للعيان جليّاً نقص المؤن داخل المدينة وخاصة الخبز والنبيذ.

وفى أثناء هذه الظروف القاسية أرسل الإمبراطور قسطنطين سفينتين إلى إيطاليا، ليستغيث قيادة الأسطول البندقى، وليطلب إليهم أن يهب قائد الأسطول البندقى فى الارخبيل مسرعاً لمعاونة القسطنطينية فى محنتها القاسية ولكن هذه البعثة البحرية التى كانت ترجو أن يتحقق آخر أمل فى إنقاذ العاصمة البيزنطية علمت بأن الأسطول البندقى فى الأرخبيل قد غادر المنطقة، وأيقنت أن لا فائدة فى الذهاب إلى البندقية والتحدث مع رئيس جمهوريتها أو قيادتها البحرية، لذا رجعت خائبة حزينة.

الحرب النفسية

أمر السلطان محمد الثانى بالهجوم على الأسوار، وأن يكون ذلك الهجوم مركزاً وعنيفاً، ضمن خطة أعدها بنفسه أيضاً لإضعاف العدو، وكررت القوات العثمانية عملية الهجوم على الأسوار ومحاولة تسلقها مرات عديدة بصورة بطولية بلغت غاية عظيمة من الشجاعة والتضحية والتفانى، وكان أكثر ما يرعب جنود الإمبراطور قسطنطين صيحاتهم وهى تشق عنان السماء وتقول: «الله أكبر.. الله أكبر» فتنزل عليهم كالصواعق المدمرة. وبدا للبطريرك ولعظماء القسطنطينية ومعهم القائد الجنوى جون جستيانى أن يترك الإمبراطور الشاب قسطنطين العاصمة ويذهب إلى مكان

آخر يستطيع منه إدارة المعركة، وتأليب الدول والإمارات النصرانية على العثمانيين، علهم يضطرون إلى رفع الحصار عن العاصمة، ووضع جستنيان إحدى سفنه تحت تصرف الإمبراطور، ولكن قسطنطين رفض العمل بهذا الرأى، وذكر للمجتمعين أنه قد أخذ على نفسه عهداً أن لا يتخلى عن عاصمته وشعبه فى هذه المحنة، ولم يتمالك عينيه من البكاء، فانهمرت منهما الدموع، وبكى من حوله من المؤتمرين لبكائه، وكان منظراً حزيناً مؤثراً غاية التأثير.

رسائل النجاة

وبعث الإمبراطور قسطنطين رسلاً من قبله إلى إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وسائر إمارات الغرب، يحملون رسائل إلى زعمائها، تبين لهم الخطر المحدق بالقسطنطينية، وتحثهم على المبادرة إلى إرسال المعونة والنجدة قبل فوات الأوان، وفيما هم فيه من ضيق وهم وتفكير فيما يعملون، عمد السلطان محمد الثانى إلى تشديد الحصار على القسطنطينية من ناحية السور القائم على ميناء القرن الذهبى، بنصب المدافع التركية القوية على الهضاب الواقعة خلف غلطة، وأخذت هذه المدافع تطلق قذائفها الكثيفة، ووصلت هذه القذائف إلى الميناء، وأصابت إحدى القذائف سفينة جنوية تجارية فأغرقتها فى الحال، فذعرت بقية السفن ولاذت بالفرار، واتخذت من أسوار غلطة ملجأ لها، واشتكى الجنويون إلى السلطان من إغراق سفينتهم وهم على الحياد، فوعدهم بالتعويض على سفينتهم.

وظلت السفن العثمانية تهجم على ميناء القرن الذهبى المرة تلو الأخرى وتحاول جاهدة كسر سلسلتها الحديدية ولكن دون فائدة، كما ظل الهجوم العثمانى البرى فى موجات خاطفة وسريعة الكرة تلو الأخرى. وكان السلطان محمد الثانى يرمى من توالى الهجمات وإطلاق القذائف فى البر والبحر دون انقطاع ليلاً ونهاراً إلى إنهاك قوى المحاصرين، وعدم تمكينهم من أن ينالوا أى قسط من راحة وهدوء بال، وهكذا أصبحت نفوسهم مرهقة مكدودة، وأعصابهم تعبة مجهودة تثور لأى سبب، وأصبح كل واحد منهم ينظر إلى زميله ويقرأ فى وجهه أمارات الذل والهزيمة والفشل، وبدأوا يتحدثون علناً عن طرق النجاة والإفلات بأرواحهم وما يتوقعونه من الأتراك إذا ما اقتحموا عليهم مدينتهم.

مؤتمرات الإنقاذ

وعقد الإمبراطور قسطنطين مؤتمراً ثانياً، اقترح فيه أحد رجاله مباغته الأتراك بهجوم شديد عنيف لفتح ثغرة توصلهم بالعالم الخارجى وبينا هم فى مجلسهم يتدارسون هذا الاقتراح، قطع عليهم اجتماعهم جندى رومى، جاء يلهث، وأخبر الإمبراطور قسطنطين بأن الأتراك قد شنوا هجوماً شديداً مكثفاً على وادى ليكوس، فترك قسطنطين الاجتماع، ووثب على فرسه، وذهب إلى مكان القتال - وكان لا يزال دائراً - فاستدعى الجند الاحتياطى، ودفع بهم إلى هذا الموقع، واستمر القتال إلى آخر

الليل حتى انسحب الأتراك.

وفي 14 مايو نقل السلطان محمد مدافعه من هضاب غلطة لتساعد المدفعية الموجودة عند باب القديس رومانوس، وليضاعف ضربات مدافعه ويكثفها في أضعف نقطة في السور البرى، وقد قاوم المدافعون - سواء الروم أو اللاتين الذين وحدهم الخطر - مقاومة باسلة، وإلى جانب هذه الهجمات المتعاقبة التي قامت بها القوات العثمانية في البر والبحر، كان السلطان محمد الثاني يفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو.

ففي 16 مايو سمع بعض المحاصرين من أهل القسطنطينية ضربات شديدة تحت الأرض، أخذت تقترب شيئاً فشيئاً منهم، وحمل الخبر إلى الإمبراطور وأركان حربه، ثم شاع في المدينة كلها، وخف أركان الحرب إلى المكان المشار إليه، وأدرك المهندسون البيزنطيون أن الأتراك يحفرون أنفاقاً خارج السور ليدخلوا المدينة من تحت الأرض، وقررت القيادة البيزنطية أن تحفر نفقاً تجاه نفق الأتراك حتى إذا التقى النفقان وجد الأتراك أنفسهم في أرض معركة حددها لهم عدوهم. وجد العثمانيون في عملهم وهم لا يعلمون شيئاً مما يدبر لهم، واستمروا يحفرون، وما أن وصلوا إلى الفجوة التي حفرها الروم حتى تملكهم الفرح وظنوا أنهم اهتدوا إلى سرداب خفي يوصل إلى المدينة، ولكن هذه الفرحة لم تطل فلم تكد

أعينهم تلمح الضياء حتى صب الروم عليهم الغاز والنفط والمواد الملتهبة، فمنهم من اختنق واحترق، ومنهم من ولى وعاد أدراجه مبتعداً عن تلك المكيدة المحكمة التى أعدتها القسطنطينية لهم.

لكن هذا الفشل لم يفت فى عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفى مواضع مختلفة، من المنطقة الممتدة بين «اكرى قبو» وشاطئ القرن الذهبى وكان مكاناً صالحاً للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار. وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفزع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون أن هى إلا أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم أن الأرض ستتشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملأون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك فى فزع ويقولون: «هذا تركى.. هذا تركى» ويجرون هرباً من أشباح يحسبونها أنها تطاردهم، وكثيراً ما كان يحدث أن تتناقل العامة الإشاعة فتصبح وكأنها حقيقة واقعة رآها أحدهم بعينيّ رأسه، بل وجري هرباً من التركى صاحب العمامة الكبيرة، والسروال الفضفاض، والشارب الرهيب، وهكذا داخل سكان القسطنطينية فزع شديد اذهب وعيهم، حتى لكأنهم «سكارى وما هم بسكارى» فريق يجرى، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض يبحلق فى وجوه البعض الآخر فى عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل الأتراك هذا هيناً، فإن هذه الانفاق التى حفروها

قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحتراقاً فى باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم فى بعض هذه المحاولات فى أسر الروم، فقطعت رؤوسهم وقذف بها إلى معسكر السلطان، ورغم عدم النجاح الذى أصاب القوات العثمانية فقد أثارت هذه البسالة الفائقة والشجاعة النادرة إعجاب أهل القسطنطينية، ودهشتهم وحيرتهم فى كيفية مواجهة هذا الخطر الشديد.

ولم تهن عزيمة السلطان محمد الثانى بما ألم بقواته من أذى وفشل فى بعض الأحيان، بل زاد ذلك من تفاؤله وثقته بالنصر الذى سيحرزه بتأييد الله تعالى له، وكان يبحث بين الحين والحين عن فكرة جديدة وخدعة فريدة يفاجئ بها عدوه، ولم يطل تفكيره ودراسته هذه المرة أيضاً فى إيجاد خطة جديدة فاجأ عدوه بها، واعتبرت أحدث اختراع فى عصره فى فن حصار المدن وتدمير القلاع، فقد استيقظ أهل القسطنطينية فى صباح 21 مايو، فإذا بهم يرون أمامهم قلعة ضخمة شامخة من الخشب، أكثر ارتفاعاً وعلواً من السور الخارجى، وذات ثلاثة طوابق، قد كسيت كلها بالجلود السميكة المبللة بالماء لئلا تؤثر فيها النار والنبال، وكان فى كل طابق منها عدد من الجنود يحملون القذائف ومختلف أدوات القتال، وتحمل فى أسفلها التراب والأحجار والأخشاب لردم الخنادق، وفى أعلاها سلالم من الحبال عصبت أطرافها بكلاليب، يلقونها على أعلى السور فتتشب فيه، ليمر عليها الجند العثمانية كالقنطرة، بينما كان النبالة يصوبون نبالهم، وحملة الأقواس يوجهون

سهامم إلى كل من يظهر رأسه من المدافعين فوق السور.

وقد هال أهل القسطنطينية أمر هذه القلعة الجبارة، ووقف الإمبراطور قسطنطين ومن معه من مساعديه وأركان حربه ينظرون إليها فى عجب ودهشة وفزع، ورأى المؤرخ البندقى «باربارو» صديق الإمبراطور هذه القلعة الجبارة، فقال: «لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها فى شهر، وقد صنعها المسلمون الأتراك فى ليلة واحدة، بل فى أقل من أربع ساعات».

وأقيمت هذه القلعة الجبارة تجاه باب القديس رومانوس الذى يدافع عنه جستنيان، وكان هذا القائد قد عجز عن إصلاح الثغرات الخارجية التى تحدثها المدافع التركية بسبب هذه القلعة الجبارة الواقفة بالمرصاد، بل أخذت القذائف الحجرية الضخمة تنهال من هذه القلعة نفسها فيما أخذت هى تقترب من السور، وتسلق كثير من الأتراك السور بالسلالم المعدة لذلك، وحمى القتال واشتد الخطر، ولاح للإمبراطور أن الهزيمة فى هذه المعركة لابد واقعة، فقاتل هو ورجاله قتال المستميت، وصاروا يقذفون القلعة بالمواد الملتهبة، وأكثروا من القذف عليها، فما لبثت أن احترقت الجلود المبتلة التى تكسوها والتهمتها النيران. وانتهت المعركة وكانت نهايتها وبالا على العدو، إذ تحطمت أربعة أبراج بما فيها من جند وعتاد، والتهمتها النيران، وامتلأ الخندق بالتراب والحجارة، وانسحب العثمانيون مرة أخرى أمام دفاع البيزنطيين الشديد. ويذكر المؤرخ التركى ضياء شاكر: «أن السلطان محمد الفاتح ما زاد على أن ابتسم عندما رأى

قلعته الخشبية كومة من الرماد، وقال لمهندسه مصلح الدين: «غداً نصنع أربعاً أخرى غيرها».

وهكذا أصبح أهل القسطنطينية فى هم دائم وقلق مستمر يتطلعون ذات اليمين وذات اليسار، وإلى فوقهم وأسفل منهم، لا يدرون من أين يدهمهم الخطر والهلاك، وأخذوا يهربون من واقعهم القاسى إلى الأوهام والخيالات وأحلام اليقظة، فجعل بعضهم يتصور أن جيشاً مجريّاً عظيماً بقيادة البطل «هونياد» قد زحف لتخليص القسطنطينية، وتصور بعضهم الآخر أن أسطولاً عظيماً قادماً من البحر لإنقاذهم، وظن الآخرون أن الملائكة ستغيثهم فى آخر لحظة وتدمر أعداءهم، بيد أن هذه الخيالات سرعان ما كانت تنقشع وتتبدد، ويشعر أصحابها أنها ما هى إلا أضغاث أحلام أمام الوقائع الجارية المرة التى تراها أعينهم وتحسها، فقد كانت مدافع الأتراك الضخمة تحدث دويّاً تنخلع له القلوب، وتحدث تخريباً فى أسوار المدينة لا طاقة لهم بإصلاحه.

وركز العثمانيون ضرب المدافع البعيدة المدى والشديدة الانفجار فى ثلاث نقاط: من ناحية باب أدرنة، ومن ناحية باب القديس رومانوس، ومن ناحية الباب الثالث العسكرى، ووضع سكان المدينة المحاصرة أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت، وعيل صبر الإمبراطور، فدعا إلى عقد اجتماع فى قصره، وساد الحضور جو من الكآبة والألم، وارتسمت على وجه الإمبراطور إمارات الجهد والإعياء، ونصح وكيل البطريرك الإمبراطور قسطنطين أن يغادر

المدينة وينجو بنفسه، ولكن الإمبراطور أبى هذه النصيحة، وأصر على البقاء فى عاصمته وأخذ يجهش بالبكاء، وأخذ المؤتمرون يبكون أيضاً لبكاء إمبراطورهم، ثم أغمى عليه لشدة ما أصابه من الغم الشديد، ولكثرة ما كان يسمع من بعيد من دوى القذائف التركية وهى تدك السور وصيحات الجنود الأتراك العالية وتهليلهم وتكبيرهم الذى كان يصم الآذان.

وفى 26 مايو تجمعت السحب الكثيفة فى سماء القسطنطينية وانعدمت الرؤية، وتشاءم الشعب الرومى من ذلك، وزاد من هلعهم واضطرابهم أن انقض نيزك من السماء على قبة كنيسة «سانت صوفيا» كاد يخطف الأبصار، فازداد الناس تشاؤماً، واشتد بهم الكرب، وزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وركب كبار الرهبان إلى الإمبراطور، وأفتوا له بمبارحة المدينة، فقد ظهرت إمارات تشير إلى سقوطها فى يد العدو بعد أن رفع الله عنها حمايته ورعايته، وسمع الإمبراطور قسطنطين هذا القول فغشى عليه وسقط إلى الأرض، وعندما أفاق قال لمن حوله: «إذا كانت هذه إرادة الله فأين نفر من غضبه». وهكذا كانت حال القسطنطينية فى أيامها الأخيرة، وهى تدنو من نهايتها. كرب شديد، وفزع عظيم، وحيرة قاتلة، وأحلام وأماني ما أبعدها عن الواقع

الهجوم الأخير العام

مضت سبعة أسابيع والحصار قائم والحرب دائرة، ونتج عن ذلك تهدم أجزاء كثيرة من السور وأبراجه، وامتلأ الخندق بالانقاض بعد أن كلت أيدى المدافعين عن رفعها، وأصبح أمام السلطان

محمد الثانى ثلاثة أماكن للهجوم على المدينة واقتحامها : الأول ما بين «تقفور سراى» وباب أدرنة، والثانى فى وادى ليكوس عند باب القديس رومانوس - وهو أكثر الأماكن تهدماً وانهياراً - والثالث بالقرب من الباب العسكرى الثالث.

ولما تمكن السلطان محمد الثانى من خطته، وبعد أن عرف ما عرف من حال المدينة وما فيه من سكانها من كرب وضيق بعث برسالة إلى الإمبراطور قسطنطين مع رسول يدعى «حمزة إسفنديار أوغلو» - وكان بين السفير العثمانى والإمبراطور البيزنطى صداقة متينة ومعرفة قديمة - دعاه فيها إلى تسليم المدينة قبل أن يشتد القتال، وتراق الدماء، وتنهب المدينة، وتنتهك حرماتها، ويقتل رجالها، وتسبى نساؤها وأطفالها وتباع فى الأسواق، واقترح السلطان على الإمبراطور أن يخرج من المدينة هو وأهله وحاشيته ومن يرغب أن يخرج معه من الشعب البيزنطى، وعرض عليه أن يكون حاكماً للمورة كما كان من قبل. أما عمن يبقى من السكان فقد تعهد السلطان العثمانى فى رسالته بأن لا يلحق بهم أذى، ومن شاء منهم الخروج فليخرج فى أمان، ومن شاء البقاء فله ذلك، وهو وممتلكاته فى رعاية السلطان وحماية الدولة.

ونظراً لما كان بين السفير العثمانى حمزة إسفنديار وبين الإمبراطور قسطنطين من معرفة قديمة، فقد صارح كل منهما الآخر، ولم يكتم عن صاحبه سرّاً، ونصح السفير حمزة الإمبراطور بالتسليم وأخبره بأنه لا قدرة له بمقاومة السلطان العثمانى، وأنها

فرصة مناسبة لإنهاء الصدام بين الرومان والمسلمين، والبدء بحياة يسودها حسن الجوار وحسن المعاملة، وحمل السلطان محمد الثانى سفيره إسفنديار أوغلو كلمة حاسمة، وهى أنه فى حالة رفض الإمبراطور هذا المسعى الأخير للصلح، فسوف لا ينتظر من السلطان إلا حرباً فاصلة تسقطه عن عرشه، وتحرمه من عاصمته، وتلحق به وبرعيته أفدح الأضرار وأشد الأخطار.

واجتمع الإمبراطور بأهل مشورته وعرض عليهم الأمر الذى جاء به السفير العثمانى وكشف لهم ما دار بينهما من حديث صريح، وطلب منهم أن يعلنوا عن رأيهم، فمال بعضهم إلى التسليم، وإنهاء هذه الحرب التى قد ظهرت نتيجتها لكن جستنيان ونفر من رجال الحرب أصروا على مواصلة القتال مهما تكن نتائجه.

عندئذ رد الإمبراطور قسطنطين رسول السلطان وصديقه القديم دون نتيجة إيجابية، وحمله رسالة شفوية قال فيها: «إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم، وانه يرضى أن يدفع له الجزية، أما القسطنطينية فإنه قد أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس فى حياته، فإما أن يحفظ عرشها أو يدفن تحت أسوارها». فلما بلغ السلطان العثمانى مقالة قسطنطين قال: «حسناً عن قريب سيكون لى فى القسطنطينية عرش أو يكون لى فيها قبر».

وعمد السلطان محمد الثانى إلى مضاعفة الضرب بالمدفعية الثقيلة والتركيز على المناطق التى حدد منها الهجوم العام، وأمر بأن تستمر المدفعية فى إطلاق قذائفها ولا تتوقف، وفى نفس الوقت تمكن

المهندسون الأتراك من صنع مدفع من طراز جديد يرمى قذيفته إلى أعلى، فتتخطى السور وتسقط فى قلب المدينة، كما هى الحال فى مدافع الهاون التى تستعملها الجيوش الحديثة، وأحدثت قذائف هذا المدفع تدميراً لبعض المناطق، وأشاعت الخوف والاضطراب والفوضى فى سكان المدينة، ووصلت قذائفها إلى وسط العاصمة.

المجلس الحربى للسلطان محمد الفاتح

وعقد السلطان العثمانى مجلساً حربيّاً فى خيمته حضره وزراؤه وكبار قادة جيشه والشيوخ والعلماء للنظر فى الموقف وما يجب اتخاذه، وطلب السلطان من الحاضرين أن يعرب كل منهم عن رأيه بصراحة وفى حرية تامة، فأشار عليه بعضهم بالمبادرة إلى الهجوم العام على المدينة فوراً وقبل أن يتسرب اليأس إلى نفوس الجند. وأشار آخرون بآراء أخرى، ثم خلص المؤتمرون إلى رأيين:

الرأى الأول: وكان لخليل باشا وزير السلطان - وهو رجل مسن حذر وذو تجارب واسعة وكان وزيراً لوالد السلطان، ثم وزيراً له، ولم يكن السلطان الشاب متعلقاً به إلا أنه أبقاه فى منصبه رجاء إلا يعدم منه رأياً نافعاً، وكان البعض يتهمه بممالاة البيزنطيين - وخلاصة رأى خليل باشا: أنه لا داعى لبذل هذا المجهود العنيف فى أخذ هذه المدينة، ولا داعى لكل هذه العمليات الحربية، ولا مبرر لإراقة الدماء بهذا الشكل للاستيلاء على المدينة، فهى ستسقط من تلقاء نفسها إن عاجلاً أو آجلاً. وأشار بعد ذلك بعدم قبول أوروبا النصرانية بسقوط القسطنطينية وهى حصن عظيم

من حصون النصرانية وركيزة من ركائزها، فالبندقية سوف تتدخل بأسطولها، وكذلك هونياد المجرى وإسكندر بك الألبانى. ثم إن المدينة بعد ذلك حصينة واللاتين متفقون فيها مع الإغريق، ولقد مضى وقت طويل وبذل مجهود كبير ولم تسقط المدينة. لذا فمن الخير ترك المدينة مؤقتاً حتى تزداد قوة العثمانيين وعندها سوف يسقطونها بكل سهولة.

وكان الرأى الآخر لزغنوس باشا الألبانى، قائد الجنود غير النظامية - وهو رجل ألبانى الأصل، اعتنق الإسلام وحسن إسلامه وجاهد فى سبيل الله جهاداً مشكوراً، وسما مركزه، وكان قريب عهد بالشباب، فهو ممتلئ قوة ونشاطاً وآمالاً، وكان بينه وبين خليل باشا حقد دفين ومنافسة حادة - وتمثل زغنوس باشا بالإسكندر المقدونى الذى استطاع فتح آسيا بجيش صغير، واستهزأ بالخطر القادم من الغرب، فبين أن الدول الأوروبية النصرانية وخاصة الجمهوريات الإيطالية منقسمة على نفسها، وهى تضيع الوقت الثمين فى الخصومات وعلى مسائل تافهة، ووضح أنه حتى لو استطاعت أوروبا أن تتفق فيما بعد، فهى لن تقدر على إرسال قوة كبيرة لتخليص القسطنطينية فى الوقت المناسب، ولا يجب التفكير فى ترك المدينة قبل أن يتم فتحها، وأيَّد ذلك الرأى قادة الجيش الآخرون وأركان حرب السلطان، كما عضده العلماء بكل قوة وعلى رأسهم الشيخ آق شمس الدين والشيخ أحمد الكوردانى خوجه (معلم) السلطان. وأنهى السلطان مجلسه بعد أن درس نفسية رجاله وما يجيش فى

صدورهم، وما أن وقف السلطان للانصراف من المجلس حتى أخبر جميع رجاله أن الهجوم قريب، وسوف يأمر به فى أقرب فرصة ممكنة. فعلا وجوههم البشر والفرح، وقوى أملهم بالفتح القريب.

وفى 27 مايو - آيار - أمر السلطان محمد الثانى جنوده بالصيام تطهيراً لنفوسهم وتقوية لعزائمهم وإرادتهم، وأمرهم بالإكثار من الصلاة وذكر الله والدعاء، وزار بنفسه فى ذلك اليوم سور المدينة من بحر مرمرة بالقرب من القرن الذهبى وتفحص أجزاءه بدقة، ورأى بعينيّ رأسه ما أحدثته المدافع من ثغرات، وبحث عن المواضع الضعيفة فى السور والتى هى فى حاجة إلى الدك والهدم، وأمر السلطان قائد المدفعية بتكثيف الضرب والتركيز على السور عند وادى نهر ليكوس، ونظم الفرق التى ستقوم بالهجوم العام. وعندما تأكد من تنفيذ خطته وأوامره قام بزيارات مفاجئة إلى كل أقسام جيشه، وأخذ يشجع الجنود، ويثير فيهم روح التضحية ويقوى فيهم الثقة بالنفس ويؤملهم بالنصر، وحتى يضمن عدم تدخل سكان حى غلطة من الجنويين طلب منهم الامتناع عن تقديم أية مساعدة للمدينة المحاصرة، ووعدهم بالتعويض فى حالة حدوث خسائر فيهم، وأرسل من نادى بين جنوده بأن المدينة ستترك لهم ثلاثة أيام يغنمون فيها ما قدروا عليه وأقسم لهم بالله على ذلك.

وكان لهذا الوعد الأخير أثر قوى فى نفوس الجنود، فزادهم قوة على قوة، وصح عزمهم على انتزاع النصر مهما كلف من ثمن، كما وأن السلطان أصدر أوامره لجميع جنده باحترام النظام، وبالطاعة

التامة، وبألا يبرح أحد موقعه حتى يؤذن له، وأوعد من يخالف ذلك بالجزاء الشديد.

وفى مساء نفس اليوم (27) أوقد الجنود العثمانيون النيران والمشاعل والقناديل وكذلك أشعلت الشموع على رؤوس الرماح حول معسكرهم، فتصاعد الضوء إلى السماء فى وهج شديد، وتعالت صيحات الجنود العثمانيين المدوية، ودقت طبولهم ونفخ فى أبواقهم، فظن أهل القسطنطينية لأول وهلة أن النار قد اندلعت فى معسكر الأتراك وأسطولهم، وعزوا ذلك إلى مساعدة السماء لهم فى محنتهم، وشد ما كانت حسرتهم وألمهم عندما رأوا الجنود والدراويش يتواثبون ويرقصون ويغنون ويكبرون، وعند منتصف الليل أطفئت الأنوار والمشاعل وغشى معسكر العثمانيين ظلام دامس وسكون شامل. وأمضى السلطان محمد الثانى اليوم التالى فى إكمال استعداداته الأخيرة، فطاف بالسور مرة أخرى يزداد من التعرف عليه. كما قصد فى نفس اليوم إلى مرسى أسطوله فى بشكتاش يصحبه أمير البحر حمزة باشا حتى يطلعه بنفسه على ما اتخذه من الاستعدادات، وطلب إليه السلطان أن يشرك جميع الأسطول فى الهجوم العام، وأن تصطف القطع الحربية حول السور الواقع على بحر مرمرة حتى يتمكن الجنود من تسلقه بالحبال والسلالم ويقتحمون المدينة.

ولما أحس الإمبراطور قسطنطين باقتراب الهجوم العام وشعر بدنو أجله وقرب سقوط ملكه وعرشه، أقام ابتهالاً عامّاً، فقام موكب

من رجال الدين الأرثوذكس والكاثوليك يصحبهم النساء والأطفال والشيوخ، وحملوا معهم صور العذراء والذخائر المقدسة، وطافوا فى شوارع المدينة، وهم يبكون وينتحبون ويمزقون شعورهم، وينشدون الأناشيد الدينية الحزينة، ويضرعون إلى الله أن يحميهم وينجيهم من الهلاك، أو يلطف بهم عندما تقع البلية. ثم قصدوا إلى أسوار المدينة، فصعد القسس والرهبان ومعهم صور العذراء إلى الشرفات والأماكن المرتفعة - لا سيما عند باب القديس رومانوس - وسادهم جميعاً شىء من السكون والهدوء، ثم خطب فيهم الإمبراطور قسطنطين وحوله كبار رجال دولته ومستشاريه العسكريين وخاصته من القسس والرهبان، فكانت آخر خطبة له، حثهم فيها على الصبر والتضحية فى سبيل الوطن، ثم التفت إلى كل من البنادقة والجنويين، فشكرهم وأثنى عليهم، وحثهم على مواصلة الدفاع فى سبيل الوطن، والذود عن النصرانية التى وصفها بأنها فى محنة كبيرة، وأعلن أنه سيدافع عن شرف عرشه حتى الموت. وكانت خطبة رائعة حقّاً، بكى كل من كان حول، واغرورقت عينا الإمبراطور بالدموع لتأثره الشديد، وخيل للجميع أن نهاية الآلام قد اقتربت، ورجوا التأييد من الله، وأملوا أن ينزل عقابه على الأتراك الذين يذيقون أبناءه وأحباءه أشد العذاب.

وهكذا صرفت الآلام الشديد أهل القسطنطينية إلى آمال بعيدة عن التحقيق، وجعلتهم يسعدون بعض الوقت فى دفء هذه الآمال، قبل أن يأتيهم اليوم المشؤوم الذين أصبح منهم قاب قوسين أو أدنى.

وفى الساعة الواحدة من صباح يوم الثلاثاء 29 مايو كان بدء الهجوم العام، فسمعت فجأة فى معسكر العثمانيين دقة ضخمة بالطبل التركى الشهير إيذاناً للجند بالتأهب والاستعداد، ثم تتابعت الدقات فى جميع أرجاء معسكرات الجنود العثمانيين، ونفخ فى الأبواق إيذاناً ببدء القتال. وقد أثارت هذه الأصوات الفزع والرعب فى قلوب أهل القسطنطينية، وهرع كثير منهم إلى الكنائس، التى دقت أجراسها تشبهاً بالعثمانيين عندما نفخوا فى الأبواق، وانطلق الجنود العثمانيون يهجمون على السور من البر والبحر طبقاً للخطة المرسومة دون خوف من الموت، واندفعوا اندافعة السيل الشديد بروح قوية، وعزيمة شديدة، ونفوس لا تعرف التردد والخوف.

وكان أشد الهجوم وأعنفه قد ركز فى منطقة وادى «ليكوس» وقسم السلطان القائد المقاتلين إلى أقسام، تقدمت منها الفرقة الأولى وهى من جنود الروملى وكان بينهم عدد كبير من النصارى الكاثوليك من الألمان والمجريين والإغريق والإيطاليين ومعهم المتطوعون حديثو العهد بالجندية إلى الأمام، حتى إذا صاروا على مرمى قوس من الأسوار توقفوا وأخذوا يمطرونه بالقذائف والسهام، تساعدهم المدفعية لدك الأسوار وشل حركات جند العدو وعدم السماح له بحرية الحركة، ورغم ذلك رد عليهم المدافعون بالمثل، وكانت الغاية من دفع هؤلاء الجند فى الطليعة استنزاف دماء الأعداء وإنهاكهم واستهلاك ذخيرتهم. ثم اندفعت فرقة ثانية فجأة تحت هذا الوابل من القذائف من النبال نحو السور، وأقاموا عليه مئات السلالم لتسلقه،

فأسرع المدافعون وقلبوا هذه السلالم بمن كان عليها، وقذفوا وراءهم الصخور والجلاميد، ولم يمنع ذلك المهاجمين من معاودة التسلق مرة بعد أخرى فى محاولات مستميتة لاقتحام السور وفتح ثغرة لدخول المدينة، واستمر القتال على هذه الصورة العنيفة المريرة نحو ساعتين، وأمر السلطان محمد الثانى جنوده بالانسحاب، وفى نفس الوقت أصدر أمراً دفع موجبه القسم الثانى من جنوده وهم جنود الأناضول إلى الهجوم ومعاودة الاقتحام من هذه النقطة الحيوية، أما المدافعون فقد ظنوا لأول وهلة عند انسحاب المهاجمين أن العثمانيين قد دحروا ونكصوا على أعقابهم، وعدلوا عن مواصلة القتال، ولكنهم فوجئوا بهجوم أشد وطأة وعنفاً من الهجوم الأول.

ولاح نور الصباح، وأصبحت الرؤية واضحة تماماً، واندفع الجنود الأتراك يهجمون على السور وقد لبسوا الدروع، فأدرك قسطنطين خطر الموقف، وشعر بانهيار خطوط دفاعاته أمام ضغط العثمانيين، ونشط جستنيان وجنوده المدرعون المتمرسون، وقاوموا هذا الهجوم العنيف مقاومة مستميتة عنيفة، وصبوا قذائفهم ونيرانهم الحامية على المهاجمين، وقلبوا السلالم التى تمكن العثمانيون من تثبيتها على السور، وغمرت القذائف والسهام العثمانيين بغير هوادة، وتهاووا صرعى على الأرض. ولكن ذلك لم يزد الأتراك إلا حماساً وشدة، وأمر السلطان بسحب جنوده واستعمال المدفعية مرة أخرى، فنصبت فى أقرب مكان من السور وأخذت تطلق قذائفها على جستنبان وجنوده، وزحف الجنود الأتراك

تحت ستار من الدخان الكثيف، وهجموا مرة أخرى، ولكن جستنيان وجنوده المدرعة ثبتوا لهذا الهجوم أيضاً.

وبينما كان القتال على أشده عند السور البرى، كان هناك قتال آخر لا يقل عنفاً وشدة وضراوة فى البحر، فقد أخذت السفن العثمانية بقيادة أمير البحر حمزة باشا فى بحر مرمرة، وكذا السفن العثمانية الراسية فى القرن الذهبى أمكنتها مقابل السور، وأخذ الجنود البيزنطيون يطلقون عليهم القذائف والسهام، ورغم كثافة نيران الروم فقد قام فريق من الجند العثمانيين بتسلق السور بالسلالم والجبال بعد تثبيتها بالخطاطيف والكلاليب، والتحموا فى صراع عنيف مرير مع المدافعين، الذين هبوا إلى قذف السلالم إلى البحر، واطلاق النيران والسهام والزيت المغلى على العثمانيين.

وقد أهاج هذا الهجوم الشديد كلا الطرفين، وزادهم ثباتاً على القتال والنزال، واستعملت فى هذه الحرب الأساليب القاسية جدّاً، ولم يتورع كلا الفريقين عن إيقاع أشد الأضرار بالآخر، وكان السلطان محمد الثانى يقذف بجنوده فى كل مرةّ حتى يحقق غرضه، ويصل إلى هدفه وهو انهيار حالة العدو المعنوية.

أما فى الشمال فقد جمع «قرجه بك» قواته وشن هجوماً عنيفاً على العدو، حتى استطاع أن يزحزح المدافعين عن أماكنهم، ووثب جنوده فى التو على أنقاض السور المتراكمة، وتمكن أحد المهاجمين الأتراك من قتل قائد المنطقة بعد مبارزة عنيفة شطره نصفين، وبمقتله انهارت مقاومة فرقته ومعاونيهم فى الدفاع عن

هذا الجزء من المدينة، وولوا هاربين، وفى الحال تدفقت جموع العثمانيين نحو المدينة من هذه الناحية. وعند ذلك دفع السلطان بفرق الإنكشارية، الذين لم يشتركوا فى القتال بعد، فتقدموا فى وادى ليكوس كالأسود الضارية، ليقابلوا رجالاً قد أنهكهم التعب والجوع وأثخنتهم الجراح، تقدموا بصياحهم الداوى، وتكبيراتهم القوية، وكانوا يطلقونها بملء أفواههم: «الله أكبر، الله أكبر». واقتربوا من الأسوار الداخلية، وقتلوا من وجدوا من المدافعين، وداس بعضهم بعضاً من شدة الحماس وضراوة الاندفاع، ووصل بعض الانكشارية إلى داخل المدينة، وارتقوا الأسوار من الداخل، وأزالوا علم الإمبراطور وعلم البندقية ورفعوا العلم العثمانى. وفى هذه الأثناء جرح القائد جستنيان جرحاً بليغاً، فحمل إلى مكان بعيد، وجعل يجود بنفسه ثم نقل إلى سفينته الراسية وراء السلسلة فى القرن الذهبى، ومن هناك نقل إلى جزيرة «خيوس» حيث قضى نحبه، وقيل إنه مات قبل وصوله إليها.

ولمّا رأى الإمبراطور قسطنطين الأعلام العثمانية ترفرف داخل المدينة توجه شمالاً ولا يعرف أحد مقصده: هل يريد الاستمرار فى القتال أو الهرب، لكنه ووجه بجموع العثمانيين تتدفق إلى المدينة كالسيل الجارف من ذلك المكان ونزل عن حصانه، وخلع ملابسه القيصرية، وسل سيفه وأخذ بضرب به ذات اليمين وذات الشمال حتى كلت يده، وأصابه أحد الجنود الأتراك بضربة سيف قاتلة، فخر صريعاً، ولم يقف شىء بعد ذلك فى وجه الأتراك، فقد فتحت لهم

جميع الأبواب والمنافذ حتى السرية منها بعد أن فر حماتها، وذهبوا يلتمسون النجاة لأنفسهم، وتزاحم الناس يدفع بعضهم بعضاً، والكل يطلب النجاة لنفسه، وتسمر كثير منهم مكانه مستسلماً للعثمانيين راكعاً متذللاً متضرعاً، سائلاً الإبقاء على حياته.

أما عن القتال البحرى فجرى كعادته، ولم يستطع أى من الفريقين دحر الآخر، لكن عندما رأى المدافعون الأعلام العثمانية فوق الأبراج القائمة على السور البرى أصيبوا بذهول وخيبة أمل، وانهارت دفاعاتهم، فمنهم من استسلم بمركبه، ومنهم من فر بسفينته بعيداً عن ميدان القتال يرغب النجاة ويتلمس طريقاً للخلاص.

وهكذا وبعد حصار دام واحداً وخمسين يومًا، كانت كلها معارك وصراع عنيف، سقطت القسطنطينية.

وجاء فى هذه الآونة التى أصدر فيها السلطان تعليماته بالبحث عن قادة بيزنطة العسكريين جندى صربى يحمل رأس قسطنطين ملطخة بالدماء ومعفرة فى التراب، وقد ظن أنه سيدخل السرور على قلب السلطان التركى، ونظر الفاتح إلى الرأس وهى تتدحرج تحت قدميه، وسأل نوتاراس أن كان حقّاً هو رأس قسطنطين، فأجاب نعم وهو يبكى، فظهر الغضب على وجه السلطان، وعز عليه أن يمثل بالإمبراطور على هذا النحو، وأمر أن يحتفل بدفنه بما يليق بمكانته.

وسلك السلطان الفاتح مع أهل القسطنطينية سياسة التسامح والرأفة، وأمر جنوده بحسن معاملة من فى أيديهم من الأسرى والرفق بهم، وفدى عدداً كبيراً من الأسرى بماله الخاص خاصةً

أمراء اليونان ورجال الدين، واجتمع السلطان مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم على المحافظة على عقائدهم وشرائعهم وبيوت عبادتهم، وأمرهم بتصيب بطريرك جديد لهم، فاجتمع الأساقفة وانتخبوا «جناديوس» بطريركاً، وتوجه هذا بعد انتخابه فى موكب حافل من الأساقفة إلى قصر السلطان، فاستقبله الفاتح بحفاوة بالغة، وكرمه أيما تكريم ورحب به وتناول معه الطعام، وتحدث معه فى موضوعات شتى، دينية وسياسية واجتماعية، خرج منها البطريرك «جناديوس» وقد تغيرت فكرته تماماً عن سلطان العثمانيين والأتراك بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف، صاحب رسالة وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة.

ولما هم البطريرك بالانصراف نهض له الفاتح ورافقه إلى باب القصر، وأعانه على ركوب الجواد المطهم الذى أعده له، وأمر وزراءه ورجال دولته أن يودعوه إلى مقره البطريركى، وأمر بجعله فى مرتبة الوزراء، وقد تأثر البطريرك لما لقيه من السلطان محمد الفاتح من بالغ الحفاوة وطيب المعشر وحسن الخلق.

ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم، فقد كانوا يتصورون الأمر خلاف ذلك: وأن القتل العام لابد لاحقهم. ولم تمض بضعة أيام على فتح القسطنطينية حتى ساد الأمن والسكينة ربوع المدينة، واستأنف الناس حياتهم المدنية العادية فى اطمئنان وسلام.

رسائل النصر

من رسائل محمد الفاتح

رسالته إلي سلطان مصر

فيما يلي نص رسالة السلطان محمد الفاتح إلي سلطان مصر الأشرف إينال وهي من إنشاء المولي الكوراني:

بسم الله الرحمن الرحيم متيمنا بذكره القديم (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك علي كل شيء قدير) يحمد الله ويثني عليه عبده المستبشر بالمبشرات المتواترة اللاتي ينبئن عن استقرار القدم المقدام علي سرير السلطانة السامية الباهرة بالدولة العلية القاهرة، ألا وهو السلطان الوالي العالي العالمي المؤيدي المظفري الظهيري الهمامي العوني الغوثي الغياثي الإمامي النظامي الذي أشرفت من أفق التوفيق شمس سلطنته، وخفقت راية الإقبال من هبوب نسيم خلافته تتطأطأ أعناق الجبابرة نحو سدته السنية ويتكأكأ أقيال الأكاسرة علي عتبته العلية وبه أضحت عقود حكمه منتظمة وأمور السلطنة ملتئمة ويتفاخر بوصفه المآثر ويختال بذكره المفاخر أعني الملكي الألطفي السلطان الأشرف،

الأبوي الأعطفي ضاعف الله تعالي ملكه وسلطانه وأفاض علي العالمين بره وإحسانه ولا برح في دولة لا تنهدم دارها ونعمة لا تنفصم آثارها وسعادة لا تصفر أوراقها وسيادة لا تتغير آفاقها وما انفك بنود الدين بباهر صولته مرفوعة وأسنة الحوادث في نحو أعدائه مكسورة، وجماجم حساده علي رؤوس الأسنة منصوبة وتحت الأقدام مخفوضة ونقول لما تتابعت عندنا الأخبار التي تشتمل علي صعود شمس السلطنة علي أوج سرير الخلافة أدامه الله وأعلاه وبارك فيه وأبقاه ببركة نبيه المجتبي ورسوله المصطفي عليه وعلي من صلة الصلوات أزكاها.. ملئنا بهجة وسرورا وغبطة وبحورا وأنشدنا بلسان صدق شعرا:

هنيئا لمصر أنت صرت عزيزة بلوغ الأماني وابتغاء المحامد
وتعتدل الأيام فيها ويقتني صنوف البرايا منه طرف الفوائد
فمذ ظهرت فيه علايم بأسكم قد التطمت منها رسوم المفاسد

هذا وإن الولاء والمواصلة من تكفل بمؤنه إحياء نسك الحج للعباد وبين من تحمل بمشاق تجهيز أهل الغزو والجهاد كما هو المتوارث من الآباء والأجداد أنعمهم الله بنعمة الموعود في المعاد، فالقلب مصمم علي تأييد تلك القديمة بسلوك طرايق تنسي لطائف أخريها بطيب نعيمها لذايذ أوليها، فبهذا الحبل المتين نحن ماسكون وعلي هذا الصراط المستقيم المستبين سالكون فشددنا وثاق صدق ذلك المقر العالي أعلاه الله وأسماه وفتحنا أبواب المراسلة وقدمنا أسباب المواصلة وأهدينا طرايف التسليمات

السليمات عن شوايب الرياء والعونات وأتحفنا لطايف التحيات المنورات بنور الإخلاص المجلاة بالولاء والاختصاص المزهرات بصدق الطوية رياضها المترعات من زلال المحبة حياضها ورفعنا الأدعية الصالحة المستجابة والأثنية الفايحة المستطابة والأشواق البالغة ذروة والأتواق المتوالية بالغدو والآصال وأنهينا إلي العلم الكريم محفوفا بما يسره الله تعالي من المطالب البهية والمارب السنية إن من أحسن سنن أسلافنا - رحمهم الله - أنهم مجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ونحن علي تسلك السنة قائمون وعلي تيك الأمنية دائمون ممتثلين بقوله تعالي: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ ومتمسكين بقوله: من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله علي النار فهممنا في هذا العام عممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزاة في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالي: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجورا وكفرا التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفر فخرا:

فكأنها حصف علي الخد الأغر

وكأنها كلف علي وجه القمر

وهي محصنة صعب المرام شامخة الأركان راسخة البنيان مملوءة من المشركين الشجعان خذلهم أينما كانوا وهم مستكبرون علي أهل الشرك والطغيان وحصن محصن مسدد مشدد مشيد منسق النظام

ما ظفر به أسلافنا العظماء هؤلاء السلاطين الأساطين الفخام، مع أنهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلا وهي قلعة عظيمة مشتهرة في ألسنة الأرض باسم القسطنطينية ولا يبعد من أن تكون هي التي نطق بها صحاح الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية عليه وعلي آله أتم الصلاة والتحية. فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقتسمون الغنايم قد علقوا سيوفهم بالزيتون.. الحديث. وغير هذا من الصحاح المشهورة هي هذه المدينة الواقع جانب منها في البحر وجانب منها في البر فأعددنا لها كما أمرنا الله بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ كل أهبة يعتد بها وجميع ألسحة يعتمد من البرق والرعد والمنجنيق والنقب والجحور وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت في البحر كالأعلام من جانب البحر ونزلنا عليها في السادس والعشرين من ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة.

فقلت للنفس جدي الآن فاجتهدي

وساعديني فهذا ما تمنيت

فكلما دُعوا إلي الحق أصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين فأحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا، وقاتلناهم، وقاتلونا، وجري بيننا وبينهم القتال أربعة وخمسين يوما وليلة.

إذا جاء نصر الله والفتح هين

علي المرء معسور الأمور وصعبها

رسالة الفاتح إلي شريف مكة

الحمدلله وسلام علي عباده الذين اصطفي أدام الله علو المقر الكريم السيدي السندي الشريفي الأشرفي الأكرمي الأعلمي الأروعي النظامي الأمامي الهمامي الأوحدي الأمجدي العالمي العاملي الأعظمي الأولوي الأعلوي العلوي المشيدي المؤيدي النصيري الظهيري الطاهري، معلي قواعد الموسم والحرمين، حامي مشاهد البقاع الشريفة والمروتين، مؤسس مواسم العظمة والجلال، مؤكد معاقد المقاصد والآمال مطلع لوامع العز والتمكين مظهر مآثر الملك والدين فلذة أكباد الرسول زبدة أحفاد البتول، أمير المسلمين وولي المؤمنين خلاصة أولاد شفيع المذنبين وهو السيد الشريف والقرم المنيف سلطان بيت الله تعالي شرفه الله وحواليه علاء الدولة والملة والدين السيد الأحسني العجلاني الحسني زاد الله تعالي سعادته وأدام سيادته، ولا خلا في دولة لا ينهدم دارها، ونعمة لا ينفصم آثارها ولازالت أسباب مودته ومحبته مؤكدة وعقود موالاته وهمته منظمة منضدة مدي الدهور والأعوام بحرمة سيد الأولين والآخرين وآله وصحبه أجمعين الطبين الطاهرين عليه أفضل الصلاة والسلام، وبعد فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشرًا بما

رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت وهي تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية الملاصقة بمرج البحرين وفي مقابلتها مدينة أخري موسومة بغلطة وفي جانبها الشرقي بلدة أخري معلمة باسكدار. أما الأولي فكأنها ثعبان له سبع رؤوس من قللها المشتهرة وتلك القلل سبع رواسي شامخات حصينة رفيعة مهيأة بأمر الله عز وجل لمقر الخلافة الإسلامية ومرزوقة لنا بتقدير الحكم السبحانية ولا شك أنها سلطان البلاد والأخريان من جنبيها يمينًا وشمالا كخادمين في طرفي السلطان فلما توجهنا وعزمنا عليها هجم علينا الكفار المملوءة فيها خارجا وداخلا وحاربوا معنا فقلم المحاربة بيننا وبينهم قريب شهرين بعد إبائهم عن إعطاء الجزية الشعرية ثم عجزوا عن القتال وهربوا من الجدال فازدحم أهل الإسلام وجاهد كل من المجاهدين عن البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جم كثير من الكماة الموحدين فوق منافذ جدارنها. المندرسة من المنجنيق والعرادة فدخلوا في نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل يوم الثالث والعشرين من شهر جمادي الأولي، فقطع في مبدأ الأول رأس هذه الملاعين أعني التكفور اللعين أو لحق بجهنم مع سائر المقتولين من المشركين، فخربوا دورهم وكسروا صلبانهم وأغاروا علي خزانيهم وأموالهم وأسروا دراريهم وصبيانهم وجعلوا معابدهم القسيسية مساجد الأمة المحمدية وجمع الملة

الأحمدية وطهر تلك المواقع من الأرجاس الرهبانية والأنجاس النصرانية ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأما بقية السيوف فعفونا عنهم وقطعنا عليهم الجزية السنوية سعيا لبيت المال فلما تشرف مناب الخطب بشرف ألقابنا العلية الباهرة وتزين وجوه الدراهم والدنانير المسكوكة بزينة أسمائنا الجلية الطاهرة جهزنا إلي خدمتكم الشريفة فخر المقربين وزين حجاج الحرمين خواجة حاجي محمد الزيتوني حفظه الله في الذهاب والإياب ورزقه الوصول والمعاودة بالخير والصواب لتبليغ الرسالة وترسيل البشارة، فالمأمول من مقر عزكم الشريف أن يبشش بقدوم هذه المسرة العظمي والموهبة الكبري مع سكان الحرمين الشريفين العلماء والسادات والمهتدين والزهاد والعباد الصالحين والمشايخ الأمجاد الواصلين والأئمة الأخيار المتقين والصغار والكبار أجمعين المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام التي كالعروة الوثقي لا انفصام لها، والمشرفين بزمزم والمقام والمعتكفين في قرب جوار رسول الله داعين لدوام دولتنا في العرفات متضرعين من الله نصرتنا أفاض الله علينا بركاتهم ورفع درجاتهم بالنبي وأله وذويه وبعثنا مع المشار إليه هدية لكم خاصة ألفي فلورين من الذهب الخالص التام الوزن والعيار المأخوذ من تلك الغنيمة وسبعة آلاف فلورين أخري للفقراء منها ألفان للسادات والنقباء والألف للخدام المخصوصة بالحرمين والباقي للمتمكنين المحتاجين في

مكة المعظمة والمدينة المكرمة زادهما الله شرفا، فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضي احتياجهم وفقرهم وإشعار كيفية السير إلينا وتحصيل الدعاء منهم لنا دائما باللطف والإحسان إن شاء الله تعالي والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الأبدية والسيادة السرمدية إلي يوم الدين آمين يا رب العالمين.. وصلي الله علي خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين.

ماذا فعل السلطان محمد الفاتح مع أهالى حى «غلطة»

أما حى «غلطة»، فقد أرسل السلطان محمد الفاتح القائد «زغنوش باشا» إليه، فأمَّن أهله باسم السلطان العثمانى وهدأ روعهم، غير أن بعض المغامرين تسللوا بالليل وفروا على سفنهم ومعهم نساؤهم وأولادهم وخدمهم وأموالهم، فغضب السلطان لذلك، وذكر للوفد الجنوى من سكان غلطة أنه كان على علم تام بأعمال شعب غلطة ومعاونتهم لأهل القسطنطينية أثناء الحصار، فطلبوا منه الصفح والأمان، ورجوه أن يسامحهم ويعفو عن زلاتهم، وأخيراً عفا عنهم السلطان. وأصدر «زغنوش باشا» فرمانا باسم السلطان ضمن لأهل غلطة حرية العبادة وبقاء كنائسهم كما هى عليه، لا تمس ولهم إدارتها الداخلية، ولهم أن ينتخبوا حاكمهم بأنفسهم، وضمن لهم حرية التجارة فى جميع أجزاء المملكة العثمانية برّاً وبحراً، على أن يدفعوا جزية سنوية، وتهدم أسوار مدينتهم. وبعد خمسة أيام من إصدار فرمان السلطان العثمانى بشأن مدينة غلطة

الجنوية قام الفاتح بزيارة «غلطة» فنزع عنها جميع الوسائل التى قد تغيرها بالعصيان، فجردها من السلاح، وهدم أسوارها من ناحية البر لتكون مفتوحة أمام الجيوش العثمانية، وأبقى على أسوارها من ناحية البحر، كما طلب الفاتح من مهاجرى غلطة العودة إلى مدينتهم، وأمَّنهم على حياتهم، وذلك فى مدة ثلاثة أشهر، وإلا أصبحت ملكياتهم ومتاجرهم وأمتعتهم ملكاً للدولة.

صدى استيلاء العثمانيين على القسطنطينية فى العالم

كان لسقوط مدينة القسطنطينية فى يد الأتراك المسلمين الآسيويين دوى عظيم فى جميع أنحاء العالم بمختلف ملله ونحله، ولغاته وأشكاله وألوانه، ولكن اختلف وقعه وتأثيره فى الغرب النصرانى عن وقعه وتأثيره فى الشرق الإسلامى.

أما الغرب النصرانى، فقد صعقه نبأ هذا الحادث، وانتاب النصارى شعور بالفزع والألم والخزى، وتجسم لهم خطر المسلمين وتهديدهم لأوروبا النصرانية كبيراً، وأخذ الناس يستنفزون بعضهم البعض عن طريق الشِّعر والأدب والمسرحيات الجادة والهزلية، وعن طريق عقد الاجتماعات بين الأمراء والملوك حتى انبعث فيهم نوع من الروح الصليبية القديمة، وتداعى الناس إلى طرح الخلافات والحزازات وإلى الاتحاد ضد العثمانيين المسلمين. وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية،

وعمل جهده وصرف وقته فى توحيد الدول الإيطالية وتأليبها على قتال العثمانيين، ورأس مؤتمراً عقد فى روما أعلنت فيه الدول المشتركة عن عزمها على التعاون فيما بينها توجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك. وكاد هذا الحلف الصليبى أن يتم لولا أن البابا اشتد عليه المرض أثر الصدمة العنيفة الناشئة عن سقوط القسطنطينية فى يد العثمانيين، ونال منه الحزن والهم شيئاً عظيماً، فمات كمداً فى 25 مارس سنة 1455م.

موقف الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا

وكان من أعظم الأمراء والنبلاء النصارى تأثراً باستيلاء الأتراك المسلمين على القسطنطينية الأمير فيليب الطيب دوق بورجونديا، فلما جاء رسول البابا إليه عام 1453م يستحثه على قتال السلطان العثمانى التهب حماساً وحمية، واستنفز جميع النصارى إلى هذا القتال، وذهب بنفسه إلى الإمبراطور فردريك الثالث امبراطور ألمانيا فوعده خيراً. كما بعث فردريك بدوره إلى ملك فرنسا «شارل السابع» ولم يكن شارل فى حاجة إلى مثل هذه الإثارة والتحريض، فقد كان يتحفز حماساً وشوقاً إلى قتال الأتراك، ولكن كان عليه إذ ذاك أن يواجه عدواً آخر أكثر قرباً وهم الإنجليز، فرأى أن ينهى أمره معهم أولاً، ثم يتفرغ بعد ذلك لقتال الأتراك العثمانيين، وقصر معاونته فى تقوية تحصينات جزيرة رودس. ولم يكتف الدوق

«فيليب الطيب» بمحادثة الملوك والأمراء والنبلاء النصارى، لكنه أثار الشعب النصرانى أيضاً ضد الأتراك، فأقام تمثيلية فى مدينة «ليل Lille» لاستثارة الحمية والحماس، دعا إليها نبلاء وعظماء قومه، وعرض فى هذه الحفلة منظراً يمثل سقوط القسطنطينية واستغاثتها بحماة النصرانية، وأعلن الدوق بعد انتهاء الحفل أنه سيسير بنفسه إلى قتال الأتراك العثمانيين، وحذا حذوه البارونات والفرسان والمتحمسون والمتعصبون للنصرانية، وهكذا تحولت فكرة القتال ضد العثمانيين إلى قتال ضد المسلمين عامة، وغزو بلادهم إمعاناً فى الانتقام واخذاً بثأر القسطنطينية.

أما النصارى الذين كانوا يجاورون السلطان محمد الفاتح أو يتاخمون حدوده فى طرابيزون وآماسيا وبلاد المورة وغيرهم، فقط اضطرهم قربهم من الدولة العثمانية أن يكتموا شعورهم الحقيقى، فتظاهروا بالفرح وبعثوا وفودهم إلى السلطان فى أدرنه لتهنئته على انتصاره العظيم، وكان فى مقدمة هؤلاء المهنئين رسل حاكمى المورة أخوى الإمبراطور قسطنطين.

إزاء ذلك لم يجد السلطان محمد الثانى بدأ من مواصلة الحرب إزاء الثورة العارمة والسخط الشديد الذى اشتعل ضده فى أوروبا، والذى أصبحت معه أوروبا النصرانية كمرجل كبير يغلى ويفور، أو كمعسكر يموج بالحركة والنشاط، واتخذ السلطان الفاتح من

القسطنطينية قاعدة لدولته ومنطلقاً لجيوشه لتدمير أعدائه، خاصة بعد أن وضع الفاتح يده ليس على مفتاح أوروبا الشرقية فحسب، بل على مفتاح العالم القديم برمته. وتزعمت البابوية فى روما نضال النصارى ضد الأتراك العثمانيين ولم تخلد إلى السكون، فهى تخشى اعتداء الأتراك على البلاد التى تخضع للنفوذ البابوى الدينى ويحدث الصدام الذى لا تخفى نتائجه. وأخيراً تحولت الفكرة الصليبية - التى أثارتها البابوية وسخرت نفوذها.

(7)
ماذا حدث بعد الفتح العظيم؟

ماذا حدث داخل القسطنطينية بعد الفتح الكبير؟!

تقول مراجع الفرنجة المتعصبة ضد المسلمين:

لقد تملك الفزع والرعب بادئ الأمر سكان القسطنطينية، فقد قتل الإمبراطور قسطنطين وجمع كبير من الجنود الذين التفوا حوله، أما عظماء المدينة وإشرافها وكبراؤها فمنهم من لقى حتفه فى المعركة، ومنهم من هرب فارّاً بجلده، ومنهم من مات كمداً، ومنهم من انتحر، والكثير منهم عاش ينتظر المصير المجهول ذليلاً مهموماً. وحاول عدد كبير من سكان المدية بمختلف أعمارهم الهرب إلى الميناء، يدفعون بعضهم بعضاً، وقتل أثناء ذلك العدد الوفير - خاصةً من النساء والأطفال - ولم تجد صيحاتهم واستغاثاتهم شيئاً، فكل واحد مشغول بنفسه، يفكر فى مستقبله وفى الحفاظ على حياته، وقد ترك كل فرد من أسرته ينجو بمهارته من القتل. والتجأ جمع غفير إلى كنيسة سانت صوفيا وغيرها من الكنائس، معتقدين أنهم وجدوا الأمان، وتوهموا أن القديسين، سيحمونهم لا محالة من اعتداء العثمانيين عليهم، وأن الملائكة ستنزل من السماء وتجعل من العدو تراباً، وأغلقوا أبواب الكنائس وتوسلوا إلى الله بيسوع وأمه أن يحفظ عليهم حياتهم، فقد كانوا يعتقدون أن العثمانيين قوم غلاظ الأكباد، قساة أجلاف، لذا فسوف يمعنون فيهم تقتيلاً وتذبيحاً بغير رحمة.

ونحن نقول:

وربما كان لهؤلاء عذرهم فى هذا الاعتقاد، فهم يعرفون سيرة الفاتحين مع الشعوب المغلوبة، وهم يذكرون كيف دخل الصليبيون مدينتهم قبل ذلك الوقت بقرنين ونصف، وما ارتكبوه فيها من القتل والتدمير وهتك الأعراض، وما قاموا به من أبشع الأعمال وأفظعها، التى كانت آثارها لا تزال ماثلة فى القسطنطينية إلى اليوم يتناقلها الأبناء عن الآباء.

ودخل الجنود العثمانيون المدينة بعد حرب ضروس وقتال مرير وضحايا عديدة وشهداء أبرار، وسيطروا على الموقف وحطموا المقاومة والجيوب التى كانت لا تزال قائمة. ولم يكن الأمر هيناً بالنسبة للعثمانيين، فإن كثيراً من أهالى المدينة والجنود الأروام الذين تركوا مراكز دفاعاتهم فى الأسوار قد صعدوا إلى أسطح المنازل، وأخذوا يقذفون منها العثمانيين بالأحجار الضخمة وقطع الحديد المحمية والأخشاب المشتعلة، متحصنين فى أماكنهم، مستميتين فى القتال والنزال. ولم يجد الأتراك بدّاً من مقاتلتهم والقضاء عليهم، وأصبحت المدينة بذلك غنيمة للفاتحين، واستمر القتال طيلة اليوم الأول، واستبيحت المدينة ثلاثة أيام استولى فيها الجنود العثمانيون على مغانم كثيرة وسبوا الكثير من الرجال والنساء والولدان.

وكان السلطان محمد الفاتح أثناء ذلك واقفاً على الأرض أو متمطياً جواده، ينظر إلى جنوده وهم يدخلون من كل صوب المدينة إلى استعصت على الفاتحين من قبله، وإلى أعلامه وهى ترفرف

بأيديهم وتخترق الحواجز المنيعة داخلة إلى قلب المدينة، وأقبل رجال الفاتح ووجوههم مضيئة فرحة، عليها أمارات البشر والبهجة والسعادة، وجعلوا يهنئون السلطان بالنصر والفتح، ولم تزد إجابة الفاتح عن قوله: «حمداً لله. ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد، ولشعبي الفخر والشكر».

دخول الفاتح مدينة القسطنطينية

وفى الظهر من اليوم الرابع توجه السلطان الفاتح إلى القسطنطينية على ظهر جواده فى موكب حافل، يتبعه وزراؤه وقواده وجنوده البواسل، ودخلها من باب القديس رومانوس. وقد أعجبته المدينة بآثارها الرائعة ومبانيها الفخمة، وكانت هتافات جنوده تدوى فى الجو: «ما شاء الله، ليحيى سلطاننا، ليحيى سلطاننا». ولما بلغ الفاتح منتصف المدينة توقف عن السير، وخطب فيمن حوله، وقرأ عليهم بلغة عربية فصحى البشارة النبوية الكريمة: «**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**» وهنأهم بالنصر، وأوصاهم بالثبات وعدم الغرور، والتمسك بالفضيلة وحسن المعاملة، والرأفة بسكان المدينة، وأمرهم بالكف عن القتل والسلب والنهب.

وسار بموكبه المظفر فى الشارع المؤدى إلى كنيسة سانت صوفيا. وترجّل أمام الباب، وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً له.

مواقف خالدة للسلطان محمد الفاتح

ولما اقترب من الباب وصل إلى مسامعه أصوات خافتة حزينة هى أصوات الصلوات والدعوات التى كانت تقام فيها، وقصد الفاتح إلى أحد أبواب الكنيسة وكان باباً منيعاً حصيناً فوجده مغلقاً، فلما علم الراهب راعى الكنيسة بمقدم السلطان ورفاقه أمر بفتح الباب على مصراعيه، وانتاب الناس خوف عظيم لحضور سلطان العثمانيين بعمامته الإسلامية الكبيرة، وتوجسوا شرّاً، وانقطعوا عما كانوا فيه من صلاة، وساد بينهم صمت رهيب وكأنما على رؤوسهم الطير، وتوجه السلطان الفاتح إلى المذبح حيث قابله رجال الكنيسة، وكانوا مختبئين خلفه وتحت المناضد وخلف الستائر، فأحسن السلطان استقبالهم، وأكد حمايته ورعايته لهم، وأمر الراهب أن تستمر الصلاة كما كانت من قبل، وأن يبقى كل إنسان فى مكانه دون أن يجزع. وسجد الفاتح مرة أخرى يشكر الله ويحمده، ثم طلب من الراهب أن يصرف المصلين ويأمرهم بالعودة إلى منازلهم آمنين على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم، ونزل هذا الكلام برداً وسلاماً على هؤلاء الناس، وظهرت على وجوههم الراحة والاطمئنان، ثم طلب السلطان الفاتح من أحد المؤذنين أن يؤذن للصلاة، فصعد المذبح وأذن للصلاة لأول مرة فى هذه الكنيسة العظيمة ذات التاريخ العريق، فأصبحت «سانت صوفيا» مسجداً جامعاً من أعظم مساجد الإسلام، وما زال حتى اليوم يعرف بجامع «أيا صوفيا»، ثم أعلن السلطان أن أول صلاة جمعة قادمة ستقام فيه، فأخذ العمال فى إعداده لذلك،

فرفعت الصلبان وصور القديسين والقديسات، وما كان على الحائط غطى بطبقة من الكلس، وأعد إعداداً لائقاً لأداء فريضة الجمعة.

ثم توجه السلطان الفاتح إلى قصر الإمبراطور، فوجد أن الخراب قد دب فيه، وسأل عن قسطنطين وجستنيان ونوتاراس وعن مصيرهم، ولم يأته منهم غير «نوتاراس» الذى كان يقوم بالإدارة المدنية فى القسطنطينية أثناء الحصار، وقد أحسن السلطان العثمانى لقاءه، وطلب منه أن يخبره عن قسطنطين، فأجاب انه لا يعلم عنه شيئاً، فسأله عن مصير جستنيان فأجاب نوتاراس بأن كل ما يعلمه عنه أنه عقب إصابته بجرح قاتل أعجزه عن القتال والنزال نقل إلى سفينة راسية فى الميناء بالقرن الذهبى، وطمأن السلطان نوتاراس هذا على نفسه وماله، وصرفه إلى بيته للاطمئنان على أسرته ورعايتها. ومن ناحية ثانية أرسل السلطان محمد الفاتح من فوره بعض رجاله إلى «باب القديس رومانوس» للبحث عن الإمبراطور، كما أرسل آخرين إلى الميناء للبحث عن السفينة التى يرقد فيها جستنيان.

مواقف من حياة الفاتح
بعد فتح القسطنطينية

السلطان الفاتح والدراويش:

تم تحقيق حلم المسلمين، وهُزم البيزنطيون، وفتحت مدينة القسطنطينية - أي: مدينة إسطنبول أو إسلامبول، موكب السلطان (محمد الفاتح)، وهو يدخل المدينة من جهة (طوب قابي) ممتطيًا جواده الأبيض، يحف به الوزراء والعلماء والقواد والفرسان.

كان الآلاف من أهالي المدينة قد التجأوا إلي كنيسة (أيا صوفيا) ينتظرون الفرصة الأخيرة للخلاص، فقد أوهمهم بعض رجال الدين بأن ملاكًا سينزل من السماء ويحرف المسلمين، وأن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إلي كنيسة (أيا صوفيا)، لأن الملاك لن يسمح لهم بتجاوز المنطقة التي تسمي الآن:(جامبرلي طاش)، وهي لا تبعد إلا مسافة 300 متر تقريبًا عن الكنيسة. أما باقي الأهالي، فقد دفعهم الفضول لرؤية هذا الفاتح الجديد، فتجمعوا علي الطريق الواصل بين (طوب قابي) وكنيسة (أيا صوفيا).

وفجأة اندفع من بين هذه الجماهير، درويش من دراويش الجيش العثماني، وتقدم إلي الأمام وأمسك بعرف جواد السلطان مستوقفًا

السلطان، والموكب كله، ومخاطبًا السلطان:

- لا تنس أيها السلطان.. لا تنس أنه بفضل دعائنا نحن الدراويش فتحت هذه المدينة.

ابتسم السلطان (محمد الفاتح) ابتسامة خفيفة، ثم مد يد علي سيفه وسله من غمده حتي نصفه قائلاً:

- صدقت يا درويش!.. لكن لا تَنْسَ حق هذا السيف أيضًا.

موقف البابا بيوس الثانى

وحاول البابا بيوس الثانى بكل ما أوتى من مقدرة خطابية ومهارة سياسية تأييد الفكرة الصليبية، لكن الشعوب النصرانية كانت أضعف من أن تقوم بتنفيذ مثل هذا المشروع بالرغم من الخطر الذى يهدد معظمها، واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا، ولكن لما جاء وقت الجد اعتذرت دول أوروبا بمتاعبها الداخلية ومشاغلها وإفلاسها، فلقد أنهكت حرب المائة عام إنكلترا وفرنسا، وفوق ذلك فإنكلترا منهمكة فى مشاغلها الدستورية وحروبها الأهلية، ولم تكن حالة فرنسا الداخلية تسمح بإشعال نار حرب مع الأتراك، فلقد أضعفتها المنازعات الداخلية أيضاً. أما إسبانيا فهى لا تزال تناضل فى سبيل وحدتها القومية ضد المسلمين. أما الجمهوريات الإيطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها بالدولة العثمانية مكرهة وحبّاً فى المال، لا تقرباً من العثمانيين المسلمين، فكانت تركز على ذلك التقارب أكثر من اهتمامها بالدخول مع العثمانيين فى حرب صليبية وتركيز جهدها فى مشاكسات معروفة نتائجها، وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت صاحبها البابا، وترك للمجر والبندقية منفردين مهمة مواجهة الأتراك والدفاع عن حدود النصرانية.

ورغم اتفاق الملكيات الأوروبية والجمهوريات الإيطالية فى

«لـودى» على الاتـحـاد ضد الأتـراك فى سنة 1454م، لكن ذلك الاتفاق لم يقف أمام تجارب الزمن، فلقد انفصلت البندقية عن الاتحاد وعقدت معاهدة صداقة وحسن جوار مع العثمانيين رعاية لمصالحها فى الشرق الأدنى، واهتم الكاثوليك وعلى رأسهم البابا باضطهاد المنشقين على الكنيسة والخروج عن الصف النصرانى أكثر من اهتمامهم بمحاربة العثمانيين المسلمين.

واستطاعت الجيوش العثمانية هزيمة المجر التى تزعمت قيادة الحملة الصليبية، وتولى هونياد المجرى قيادتها، ونتج عن ذلك أن وطدت الدولة العثمانية أقدامها فى بلاد الصرب واليونان والأفلاق والقـرم والـجـزر الرئيسية فى الأرخبيل. وقـد تم ذلـك فى فترة قصيرة، حيث داهمهم السلطان الفاتح، وشتت شملهم، وأخذهم أخذاً عظيماً. وعندما استولى على ألبانيا عبرت جيوشه البحر ونزلت فى «أوترانتو» على الشاطئ الإيطالى، ولولا وفاة السلطان الفاتح فى هذه الآونة، وقلة خبرة القائد العثمانى المكلف بقيادة الحملة العثمانية وتراخيه، لتم لجيوش العثمانيين الاستيلاء على إيطاليا برمتها، ولتغير بذلك وجه تاريخ أوروبا.

عند ذلك بدأت أوروبا تفيق من نومها، وتتصرف عن حرب الأتراك العثمانيين، لتقوية نفسها، فقد وجدت أن بعد المسافة بينها وبين الأتـراك وسوء وسائل المواصلات يحول بينها وبين هذه الحرب، وبات واضحاً لديها أن هذه الاتفاقيات - التى تعبر عن وحدة الهدف

النصرانى - لو تمت فما هى بقادرة على قهر الأتراك أو التغلب عليهم، خاصة بعد معركة «نيكوبوليس» التى دافع الأتراك فيها عن مركزهم بنجاح أذهل ملوك أوروبا وشعوبها، وكانت نتيجة هذه الموقعة خيبة أمل النصارى بدرجة لم يعد معها من السهل استثارة الأوروبيين من جديد لحرب مع المسلمين. كما أن هذه الحملات كانت تستلزم جمع المال الوفير للاستعداد للحرب ولتحرير الأسرى بعد المعارك، ولم يعد الأوروبيون يطمئنون بسهولة إلى إنفاق أموالهم فى حملات غير مضمونة النتائج ولا مأمونة العواقب. ولكن بالرغم من ذلك لم تكن البابوية زعيمة النصرانية لتتصرف إلى اليأس أو تخلد إلى السكون، فكانت تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لهم والتى تخضع للنفوذ البابوى الدينى، لذلك حاول البابا «بيوس الثانى» بكل ما أوتى من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده فى ناحيتين اثنتين: حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين النصرانى، ولم يقم بإرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض، وإنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان الفاتح يطلب منه أن يعضد النصرانية، كما عضدها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه أن هو اعتنق النصرانية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة. ولما فشل البابا فى خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، وكانت نتائج هذه الخطة الثانية قد بدا فشلها مسبقاً بهزيمة الجيوش الصليبية والقضاء على الحملة التى قادها هونياد المجرى.

(8)
نتائج الفتح المبين

نتائج الفتح المبين

ونتحدث الآن عن نتائج هذا الفتح المبين فى الشرق الإسلامى بإيجاز، فنقول: لقد عم الفرح والابتهاج المسلمين فى ربوع آسيا وأفريقيا فقد كان هذا الفتح حلم الأجداد وأمل الأحفاد ولقد تطلعت إليه الأجيال الإسلامية طويلاً، وها قد تحقق!!، وأرسل السلطان محمد الفاتح رسلاً من قبله إلى مصر والحجاز وبلاد فارس والهند - وهى أكبر الدول الإسلامية فى ذلك الوقت - يحملون نبأ هذا الفتح الكريم، فأذيعت أنباء الانتصار من فوق المنابر، وأقيمت صلوات الشكر، وزينت المنازل والحوانيت، وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والأقمشة المزركشة بألوانها المختلفة.

ويقول ابن إياس صاحب كتاب «بدائع الزهور» فى هذه الواقعة: «فلما بلغ ذلك، ووصل وفد الفاتح، دقت البشائر بالقلعة، ونودى فى القاهرة بالزينة، ثم إن السلطان عين برسباى أمير آخور أرسل رسولا إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح».

كما وصف المؤرخ المصرى «ابن تغرى بردى» فى كتاب «حوادث الدهور» هذه الواقعة التاريخية المهمة، ووصف شعور الناس وحالهم فى القاهرة بعد أن وصل إليها قاصد السلطان الفاتح ورفاقه فى الثالث والعشرين من شهر شوال سنة 857 هجرية «27

أكتوبر 1453م»، بنبأ فتح القسطنطينية ومعهم الهدايا وأسيران من عظماء الروم، قال: «... قلت: والحمد لله والمنة على هذا الفتح العظيم، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء اسطنبول، وطلع بهما إلى السلطان «إينال سلطان مصر فى ذلك الوقت وهو تركى أيضاً»، وهما من أهل القسطنطينية، فسر السلطان والناس قاطبة بهذا الفتح العظيم، ودقت البشائر لذلك، وزينت القاهرة بسبب ذلك أياماً، ثم طلع القاصد المذكور وبين يديه الأسيران إلى القلعة فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من شوال بعد أن اجتاز القاصد المذكور ورفقته بشوارع القاهرة، وقد احتفلت الناس وزينت الحوانيت والأماكن، وأمعنوا فى ذلك إلى الغاية، وعمل السلطان الخدمة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل...».

محمد الفاتح وتنظيم دولته

لم تكن مهمة ما بعد الفتح العظيم سهلة يسيرة، ولم يكن بمثابة النهاية لآمال السلطان الواسعة، بل إنها كانت بداية لها ما بعدها. فقد حمل السلطان محمد الثانى رسالة نشر الإسلام فى العالم، وإرساء قواعد حكم سليم لدولة عظيمة تدين بهذا الدين، وتكون مهمتها الأولى الجهاد فى سبييل الله، وقد ساعده فى حمل هذه الرسالة شعب مسلم يعتز بعقيدته، وينحدر من سلالة تركية تمتاز بالجرأة والإقدام واحتمال الصعاب، وكانت السياسة العثمانية ترمى دائماً إلى التفوق الحربى، وهذا ما مكنهم من تأسيس هذا

الملك العريض. وأدرك السلطان محمد الثانى أن استتباب حكمه، وتمكنه من قيادة شعبه والوقوف فى وجه أعدائه، لا يتحقق إلا بهذا التفوق الحربى، وتطوير أساليب القتال وابتكار الجديد منها، وكانت منشآت الدولة العثمانية فى عهد هذا السلطان فوق مستوى عصره. وكانت دولته أقوى الدول الكبرى فى القرن الخامس عشر الميلادى، وقد أزالت بقايا الدول التى كانت هشة وغير مستقرة سواء فى آسيا الصغرى أو فى بلاد أوروبا الشرقية، واتخذت لها عاصمة جديدة عظيمة، لها تاريخ مجيد، جميلة الموقع، متوسطة المركز بين بلادهم الآسيوية وممتلكاتهم الأوروبية، وتشرف على البر والبحر، وتتفق مع ما أصبح للعثمانيين من مجد وقوة وعظمة.

كان السلطان الفاتح مصلحاً كبيراً ومنظماً من الطراز الأول، طويل الباع فى الإدارة الداخلية وتنظيم العمل الحكومى، كما كان رجل حرب وصاحب عبقرية فيها، تعد من العبقريات النادرة التى شهدها التاريخ، والتى قل أن يجود بمثلها الزمان، وكان رجل ثقافة، واسع الاطلاع فى العلم والأدب، يتذوق الشعر ويستلهم الفن.

وتاريخ حياة الفاتح ترينا كيف كان منذ نعومة أظفاره يمتاز بنواحى عديدة وخصائص جمة فى النبوغ والعظمة، ومن وقت أن كان أميراً شابّاً يعنى والده بتعليمه وتثقيفه وتربيته عناية بالغة، ويهيؤه للاضطلاع بأعباء الملك والقيام بما ينتظره من الأحداث الجسام.

وما أن بدأ يظهر على المسرح السياسى والعسكرى حتى وجدناه

يرتقى السلطنة مرتين، مرة فى سن مبكرة جدّاً فى حياة والده وبإرادته، والثانية بعد وفاته، ويسير بشعبه سيرة حسنة، لا يفرق بينهم فى اعطاء الحق وإنصاف المظلوم، وهم كما شاهدنا من نحل وملل عديدة، التنافر أقرب إليهم من التآلف، وينشر الأمن والعدل فى الدولة العثمانية ذات المساحة الشاسعة فى عصر كثر فيه اللصوص وقطاع الطرق، ويجمع تحت لوائه شتات الدويلات الحاكمة فى الأناضول القائمة على أطلال الدولة السلجوقية، ويجعل منها جميعاً دولة عظيمة، موحدة الإدارة، قوية البنيان مرموقة المكانة، مرهوبة الجانب.

وقد نجح السلطان محمد الفاتح نتيجة المجهود الضخم الذى بذله فى تنظيم الدولة فى الإدارة والقضاء نجاحاً باهراً، ولم يكن هذا النجاح يقل بأية حال عن نجاحه فى ميدان القتال وتحطيم قوى أعدائه. وقد أحدث فى البلاد التى فتحها تنظيماً شمل جميع مرافقها وفقاً لما كان سائداً فى عصره من العرف والأساليب، وفى حدود ما ترسمه الشريعة الإسلامية من النظم والأحكام، وكان تنظيمها مثلاً أعلى فى الإبداع والإتقان بالنسبة لعصره.

ولا نستطيع فى عرضنا لسيرة السلطان محمد الفاتح أن نشير إلى أعماله وبطولاته برمتها، فإن ذلك يحتاج بدون مبالغة إلى مجلدات ضخمة إذا أردنا أن نوفيه حقه منذ صباه إلى آخر لحظة فى حياته، التى أوقفها كلها على رفع راية الإسلام خفاقة عالية وإعلاء شأن أمته، والعمل على خير شعبه، والحفاظ على مكاسبه التى حققها بحد حسامه وقذائف مدافعه، وليس أدل على ما نقوله

من أنه قاد وهو فى سن الثالثة والعشرين من عمره أعظم الجيوش البرية والبحرية وابتكر أساليبَ وخططاً لم تكن معروفة فى عالم الحرب وفنون القتال، فقدره عدوه قبل صديقه، وبهرت أفعاله العالم بأسره، وأنزل الرعب فى قلوب أعداء الإسلام، وجعلهم فى هم دائم وقلق مستمر ومستقبل مظلم، وبفضل عزيمته القوية وشعبه المسلم القوى المجاهد هزم أقوى جيوش أعدائه، وأخضع الثائرين، وحطم القلاع المنيعة التى عاصرت القرون والدهور.

التنظيمات الإدارية والقضائية

فى عهد الفاتح وتنظيم شؤون الدولة

إننا حين ننظر فى القوانين التى سنها السلطان محمد الفاتح لتنظيم شؤون الإدارة الداخلية، وتنظيم اختصاصات كبار رجال الدولة، وحين ننظر فيما اتخذه من تقاليد ومراسم وتشريفات لُقب من أجلها بالقانونى - وان اشتهر أحد أخلافه وهو السلطان سليمان بهذا اللقب - نجد أن السلطان محمد الفاتح قد وضع كل ما يتطلبه كيان دولة، وأرسى أساسها بحيث يضمن لها السلامة والأمن سواء داخل الدولة أو خارجها.

وقد كانت تشكيلات الدولة العثمانية التى استحدثها السلطان محمد الفاتح من الكثرة والإتقان بحيث فاقت جميع الدول المعاصرة، وأصبحت نموذجاً يحتذى به، وقد أقدم السلطان الفاتح على ترتيب الحكومة الجديدة، واستفاد من كل الظروف المحيطة

به، واستلهم من كل الحضارات التى ترك تراثها للعثمانيين، فهو سلطان مسلم يحكم دولة إسلامية، وهو فى نفس الوقت من أصل تركى، وعليه أن يقود الشعب التركى ويحقق أمانيه ورغباته، ويحافظ على أصالته وتقاليده وعاداته، وفى نفس الوقت جلس على عرش الأباطرة البيزنطيين فى مدينتهم العتيقة وعلى نفس عرش القياصرة، فأصبح رئيسهم بعد أن غير قبعة الإمبراطور بعمامة التركى الكبيرة البيضاء، وعليه أن يقتبس بعض عادات وسلوك الشعب الرومى نتيجة اختلاطه به، كما حل محل الأمراء الكثيرين الذين كانوا يحكمون فى البلقان وآسيا الصغرى، وانتزع من قلوب رعيتهم الولاء الذى عبروا عنه فى محبة عظيمة للسلطان وتفان فى خدمة الدولة العثمانية. وشهد عصره تكاتف هذه الفئات والطوائف الدينية والعنصرية، والتفوا حول سلطانهم وأخلصوا له وتفانوا فى خدمة الدولة، وكل هذه التغييرات التى أقدم عليها الفاتح فى مدة حكمه التى تزيد قليلاً على الثلاثين عاماً، رغم ضخامتها وكثرتها لم يجند لها سوى القليل من الموظفين، ولم ينفق سوى القليل من المال وبأحسن ما يكون النظام والانتظام.

إعادة تنظيم الديوان

وكان أهم عمل إدارى فى عهد السلطان الفاتح هو الديوان، الذى كان يجتمع رجاله فى القصر السلطانى قبل ظهر كل يوم ماعدا أيام العطلات الرسمية، وكان يتألف من: الوزير الأعظم، ووزراء القبة، وقضاة العسكر، وقاضى استانبول، وآغا الانكشارية، وبعض كبار

رجال الدولة بحكم مناصبهم.

وكان الديوان يتميز بروح الإنصاف وإحقاق الحق، وتصدر قراراته من قبل قضاة العسكر أو قاضى إستانبول، على أساس أن الإدارة فى الإسلام قائمة على الشورى، وعندما ينعقد الديوان يتلو رئيس الكتاب الموضوعات والقضايا المعروضة، ويبت فيها، ثم يصدر الحكم فيها قاضى العسكر أو قاضى إستانبول على حسب نوع القضية أو المشكلة المعروضة. وكان الغرض من إصدار الحكم من مرجع دينى كبير مثل قاضى العسكر أو قاضى استانبول هو تحقيق العدالة، لما يتمتع به القضاة من الاستقلال والحرية. وفى كثير من القضايا كان القضاة يستشيرون أعضاء الديوان قبل إصدار الأحكام، للاستفادة من أهل العلم وذوى الكفاءة فى القضايا المعروضة عليهم عندما يرون الحاجة ماسة إلى ذلك.

وكان السلطان محمد افاتح يدعو فى أوامره وتعليماته التى يصدرها لولاته إلى الاهتمام بالعلم والعدالة، فبالعلم ترتقى الدولة وتنهض، ويزداد دخلها، وتنهتك عنها أستار الظلمة والظلام، وبالعدل تطمئن الرعية، وتسعى إلى العمل السليم الواضح، وتتفتق أذهانها بالأفكار الجديدة والنظريات السليمة الصائبة. وكان السلطان محمد الفاتح يعلق فوق عرشه الفاخر الكلمة التالية: «العدل أساس الملك». وكان شديد الحرص على إجراء العدالة الدقيقة الحازمة فى كل جزء من أجزاء مملكته، مسترشداً بالخط الذى كان يسير عليه ثانى الخلفاء الراشدين فى العدل والحق، وخدمة الرعية

خدمة تامة، وكان كثيراً ما يتمثل بقوله عمر رضى الله عنه: «الله لو تعثرت عنزة فى العراق لسئُل عنها عمر يوم القيامة» وأجبر عماله على السير فى خطاه، ودفع الشر والأذى عن رعيته. مؤكداً عليهم أن يعملوا على تحقيق الرفاهية والرخاء للجميع.

وكان الأمن الداخلى والطمأنينة فى تلك العصور مشكلة كبرى لوجود اللصوص وقطاع الطرق، ولابد من قطع دابر هؤلاء، فعنى السلطان محمد الفاتح قبل كل شىء بنشر الطمأنينة والسلام فى إمبراطوريته - التى تجمع جنسيات مختلفة القوميات والأديان والعادات - ولم يكن هذا بالأمر السهل الهين، فبجانب الأتراك المسلمين - وهم عمود الدولة الفقرى، وقوتها الأساسية - يوجد: الإغريق والصقالبة على اختلاف أنواعهم، والبلغار والألبانيين ويوجد نصارى أرثوذكس بجوار الكاثوليك فى تلك البوتقة الكبرى التى تسمى بالدولة العثمانية، عاش هؤلاء جميعاً قبل الحكم العثمانى حياة اضطراب وفوضى، بحيث أصبحت عادتهم عدم الاستقرار والتخوف من المستقبل، وتفشت بينهم روح الخيانة كذلك تفشى الحسد والبغض لكل من يتفوق حتى فى داخل المجموعة الواحدة بل وحتى فى داخل البيت الواحد، كما فقدوا الحرية والراحة والأمن والسلام، فوضع الفاتح قوانينه التى نظمت لسكان الدولة من غير المسلمين العلاقات بينهم وبين جيرانهم من المسلمين، وبينهم وبين الدولة التى تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل والكفاية فى رعيته، وجد فى ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم حكم الإسلام،

فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة فى ربوع المملكة الشاسعة.

وأهم عمل إدارى قام به السلطان محمد الفاتح هو تقنين التشريع، فشكل لجنة اختارها بنفسه بدقة وتمعن من كبار العلماء، ووضع «قانون نامه» الذى جعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ فى التشريفات والاحتفالات السلطانية، وهو يقر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامى أيّاً كان أصله وجنسه.

وكان هناك صدر أعظم هو الشخص الثانى فى الدولة، ومعه أربعة وزراء يساعدون الصدر الأعظم الذى احتفظ لنفسه بقيادة الجيش ورئاسة الديوان، وأبقى السلطان النظام الذى كان سائداً لحكم الولايات أيام أسلافه، وأدخل عليه بعض التعديلات الطفيفة التى تتناسب وعصره ودولته. وكانت الدولة تنقسم إلى ولايات كبرى يحكمها أمير الأمراء وكان يسمى «سنجق بك» وكل منهما كان يقوم بأعمال مدنية وعسكرية فى آن واحد، وترك لبعض الإمارات الصقلبية فى أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلى، فكان يحكمها بعض أمراء منها ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة، وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا فى الثورة على الحكومة العثمانية، وعندما تعلن الدولة الحرب وتدعو أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا فى الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تامّاً، وذلك حسب

نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجة من إيراد إقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجه مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس، وكانت جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية.

التعليم فى عهد السلطان محمد الفاتح وبعد الفتح

لم تكن عناية السلطان محمد الفاتح بالعلم والثقافة بأقل من عنايته بشؤون السياسة والحرب، فقد كان شديد الاحترام للعلماء ورجال الدين والمتعلمين بصفة عامة، وكان يدرك بفطنته أن القوة المادية والحربية لا تكفل وحدها للشعب السعادة والمجد والاحتفاظ بالمكاسب العسكرية والسياسية، وأنه لابد من دعمها بقوة العلم والإيمان والعدل، ولذلك كان يعمل دائباً وبجهد حقيقى، ليجعل من دولته موطناً للعلم ومجمعاً للعلماء والشعرء ومركزاً للعدالة.

وكانت الدولة العثمانية منذ نشأتها تعتمد على قضاة مسلمين وفقهاء متمكنين من علمهم، يختارون من بين العلماء القادرين على الاضطلاع بأعباء القضاء وسياسة الرعية، ممن نشأوا فى البلاد الإسلامية مثل الأناضول ومصر وسوريا وإيران. وبعد فتح القسطنطينية اتسعت البلاد وتباينت الموضوعات، فاقتضى هذا الوضع الجديد للدولة مضاعفة العناية بشؤون التعليم والقضاء، فأنشأ السلطان محمد الفاتح فى سنة 875 هجرية مؤسسة علمية كبرى فى عاصمة الدولة الجديدة، وكان الغرض الذى يرمى إليه

السلطان من إنشاء هذه الجامعة العلمية تخريج علماء متبحرين فى العلوم كلها خصوصاً فى العلوم الدينية، ولهذا السبب استقدم السلطان الفاتح كبار العلماء والأساتذة من البلاد الإسلامية الأخرى، واستعمل معهم جميع أساليب الاغراء والتشجيع وبذل لهم بعد قدومهم واستقرارهم ضروب التكريم والإنعام.

وما هى إلا فترة قصيرة من الزمن حتى تحقق الغرض الذى من أجله أقدم السلطان محمد الفاتح على إنشاء جامعته العلمية، فتخرج منها عدد لا يحصى من العلماء والفقهاء والشعراء ورجال الفن والأدب، مدونة أسماؤهم فى كتب التاريخ والتراجم مما يطول شرحه ويعجز حصره، وكان السلطان محمد الفاتح عقب فتح القسطنطينية قد أنشأ مدرسة آيا صوفيا وولى عليها المولى خسرو، ففاقت المدارس الموجودة فى ذلك العهد، وحازت على شهرة علمية كبيرة، وقصدها طالبو العلم والمعرفة، واحتفظت بمركزها العلمى الممتاز سنين عديدة إلى أن تمت تشكيلات مدارس الفاتح.

وكانت مراحل التعليم والنظم الدراسية المتبعة بمدارس السلطان الفاتح على النحو التالى:

المرحلة الأولى وتسمى الخارج.

المرحلة الثانية وتسمى الداخل.

المرحلة الثالثة وتسمى موصلة الصحن.

المرحبة الرابعة وتسمى الصحن.

وكانت مدارس المرحلة الأولى تدرس فيها مبادئ العلوم الدينية والرياضية والطبيعية، علاوة على حفظ أجزاء من القرآن الكريم، وتسمى فى مجموعها «دروس الخارج» والمرحلة الثانية كانت تدرس فيها مقاصد هذه العلوم ولاسيما الفقه، ويضاف إليها مواد التاريخ الإسلامى واللغة العربية، وهى فى مجموعها عموميات ومدخل للتخصص، ويمكن لخريج المرحلة الثانية تولى الوظائف البسيطة، أما الطالب الذى كان يريد الانخراط فى السلك العلمى فعليه أن يلتحق بالمرحلة العلميةالثالثة، وهى بمثابة إعداد للمرحلة الأخيرة حيث يدرس على يد علماء متخصصين فى العلوم العالية المقررة فيها، حتى إذا أتم دراسته بنجاح خول له ذلك حق الالتحاق بمدارس الصحن.

و مدارس الصحن هى بمثابة جامعة علمية كبرى، تتكون من المدارس الثمان المبنية حول جامع الفاتح، وبجوارها المدارس الموصلة للصحن وهى ثمانى مدارس أخرى بنيت خلف المدارس الثمانى المشار إليها. ويبلغ عدد المدارس المطلة على البحر الأبيض ثمان مدارس نصفها مدارس صحن والأخرى مدارس تتمة، ومثلها كذلك بجهة البحر الأسود، وفى الوقفية التى تركها السلطان الفاتح سميت مدارس الصحن الثمان بالمدارس العالية وسميت مدارس التتمة بالمدارس الصغرى.

وأنشأ السلطان محمد الفاتح بجوار هذه المدارس مطعماً خيريّاً ومستشفى كامل المعدات، كان فى نفس الوقت مستشفى تعليميّاً يتمرن طلاب الطب فيه، شأنه فى ذلك شأن مستشفى قصر العينى

والدمرداش فى مصر فى العصر الحديث، وكانت فروع العلم تدرس فى هذه المدارس ويتخرج منها القضاة والأطباء والمهندسون والزراعيون والتجاريون والمعلمون، وكان خريجو مدارس الصحن بصفة عامة على خلق حسن وسلوك مستقيم، ومقدرة علمية فقد تربوا تربية دينية، وتأصلت فى قلوبهم عقائد الإسلام، لذا نالوا احترام وثقة الناس، فى مجالات أعمالهم، وكانوا يلقون من السلطان الفاتح نفسه العطف والرعاية والاحترام.

الإنشاء والعمران فى عهد محمد الفاتح

أما فيما يتعلق بالأعمال الإنشائية والعمرانية والأعمال المتصلة بالأغراض السلمية فقد أكثر الفاتح من إنشاء المبانى والطرق والجسور، وخص مدينة القسطنطينية بأعظم قسط من عنايته واهتمامه فى هذه الناحية، فما إن دخلها حتى عين محافظاً لها عهد إليه بالإشراف على تعمير المدية وتخطيطها من جديد، وإضافة أحياء إليها، وتنظيم شؤون الإدارة فيها، وكان مما فعله لتشجيع الإقامة فى المدينة التاريخية أن بعث إلى ولاته فى الأناضول والرومللى يطلب منهم إرسال جماعات من السكان إلى القسطنطينية، فأوفدوا إليها الآلاف من الأسر المختلفة يحدوهم المكسب المادى والشهرة العريقة والمنصب الرفيع.

وأنشأ السلطان محمد الفاتح فى القسطنطينية كثيراً من المساجد والمعاهد العلمية، والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات العامة والأسواق الكثيرة والحدائق الواسعة، وأدخل

المياه إلى المدينة عبر قناطر خاصة، وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المبانى وإنشاء المحلات التجارية التى تزيد فى عمران المدينة، حتى أصبحت ثلاثة أضعاف ما كانت عليه أيام قسطنطين آخر أباطرة بيزنطة، فقد كان السلطان محمد الفاتح يريد أن يجعل من القسطنطينية «أجمل عواصم العالم وحاضرة العلوم والفنون».

ومن آثار السلطان محمد الفاتح الإنشائية بناء دار السعادة القديمة «العتيقة» بقرب الجامع الذى أنشأه السلطان بايزيد الأول، فكانت أول دار حكومى أنشأها سلاطين آل عثمان بعد فتح هذه المدينة، وكذلك بناؤه الجامع الشهير باسمه وهو الواقع على التل الرابع فى المدينة والذى قام ببنائه المهندس اليونانى «خرستو دولوس» على أنقاض كنيسة «سان أبوتر» وله مئذنتان عاليتان وهو فى تمام الروعة والفخامة، وقد صمم هذا الجامع بحيث يُرى من البحر من مسافة بعيدة وبحيث يستشعد الناظر فوراً الروح الإسلامى لهذا البلد الذى هو مقبل عليه.

ومن المنشآت المعمارية الأخرى، جامع أبى أيوب الأنصارى وجامع الشيخ البخارى بجانب باب أدرنة، وجامع الإنكشارية المسمى «أورطه جامعى». ويعتبر السلطان محمد الفاتح أول من أسس مكتبة هى الأولى من نوعها فى إستانبول، وحذا حذوه خلفاؤه من بعده، فحفظوا لنا التراث الإسلامى بشتى لغاته ومختلف مواضيعه من الضياع والتلف، ولولا ذلك لاندثر جزء كبير من تراثنا

الإنسانى الإسلامى، أو استولى عليه الغرب وأخذه إلى بلاده ونسبه إليه. وكذلك شيد السلطان محمد الفاتح جامع «كوتشك آيا صوفيا» أى جامع آيا صوفيا الصغير وهو واقع على بحر مرمرة وكان فى الأصل كنيسة القديس سرجيوس، وأيضاً جامع «زيرك» الواقع على القرن الذهبى وسمى على اسم مولانا زيرك العالم الدينى الصوفى الشهير من رجال القرن التاسع الهجرى.

أما التجارة والصناعة فقد عنى السلطان محمد الفاتح بهما، وعمل على إنعاشهما بجميع الأساليب والوسائل، وكان العثمانيون مهرة فى إنشاء الطرق والكبارى مما سهل التجارة فى جميع أنحاء الدولة، وقد اضطرت الدول الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها للتجار الإغريق وكانوا قد منعوا من دخولها فى عهد الأباطرة البيزنطيين، ذلك أنهم قد أصبحوا فى تلك الحالة يبحرون فى ظل الراية العثمانية، وقد اتخذوا زى الأتراك وعاداتهم، ومن ثم ظفروا من أمم غربى أوروبا بالاحترام والتقدير اللذين كان الكاثوليك يرفضون دائماً حتى ذلك الحين أن يمنحوهما أفراد الكنيسة الإغريقية، وكان من أثر ذلك أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية فى جميع أرجاء المملكة.

الجيش والبحرية فى عهد السلطان محمد الفاتح

اهتم السلطان محمد الفاتح بالجيش وأولاه رعاية خاصة، فالجيش فى نظره أساس الدولة وركنها الأول، فعنى بإعادة تنظيمه وبمسألة قيادته، فكان لكل فرقة آغا هو قائدها، وجعل لآغا

الإنكشارية حق التقدم على القواد الآخرين، فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذى جعل له السلطان القيادة العليا للجيش.

وقد تميز عهد السلطان محمد الفاتح إلى جوار قوة الجيش البشرية وتفوقه العددى، بإنشاءات عسكرية عديدة ومتنوعة، فأنشأ دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون فى المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات عسكرية متنوعة فى تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال، وكان هناك صنف من الجنود يسمى «لغمجية» مهمتهم الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد فتحها، وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء.

وفوق ذلك كانت هناك جامعة عسكرية لتخريج المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحة، أنشئت داخل القصر السلطانى وعرفت بمدارس «اندرون همايون» وكانت تمد الجيش بالفنيين المتخصصين وقد اكسب هؤلاء العثمانيين شهرة عريضة فى الدقة والنظام.

وكما أولى السلطان محمد الفاتح الجيش البرى اهتمامه الزائد وعنايته الفائقة، كذلك أولى القوة البحرية باهتمام مماثل، لأنه أدرك عظم خطورتها وأهميتها وشدة الحاجة إليها منذ فتح القسطنطينية،

حيث ثبت له أن النصر كان بعيد المنال طالما أن المدينة لم يحكم حصارها وتطويقها من البحر والبر جميعاً، وعين السلطان الفاتح سليمان باشا بلطه أوغلو قائداً بحريّاً عامّاً سنة 855 هجرية، وهو أول من ولى هذا المنصب، وبعد فتح القسطنطينية ضوعفت العناية بالسلاح البحرى، فلم تمض إلا مدة من الزمن قليلة حتى سيطر الأسطول العثمانى على البحرين الأسود والأبيض.

وكان الأسطول البحرى يدار من قبل الترسانة، وكانت إحدى فروع جنود الخاصة وتسمى بطائفة العزب أيضاً، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف جندى بحرى تتألف من: القبطان، وقواد السفن، والضباط، والبحارة. ونترك حديثنا عن هذا الموضوع ونحيل القارئ إلى الأعمال الجليلة التى قام بها جنود البحرية والتضحيات الجسيمة التى قدموها أثناء قتالهم مع أعدائهم، فحافظوا بذلك على سلامة حدود الدولة التى تواجه البحر فى أنحاء كثيرة، وإذا تصفحنا بعض كتب البحرية الإسلامية مثل كتاب «حقائق الأخبار عن دول البحار» لمؤلفه إسماعيل سرهنك ومثل تاريخ جودت باشا التركى، نجد اهتمام السلطان محمد الفاتح بالبحرية العثمانية، وأنه كان اهتماماً بالغاً استحق معه أن يعدّه المؤرخون مؤسس الأسطول العثمانى، وكان يشجعه على ذلك ما شاهده بنفسه من المستوى الذى وصلت إليه الدول الإيطالية وبخاصة البندقية من عظمة وقوة وثراء ورخاء بفضل أسطولها القوى الذى يجوب البحار، ومن ثم لم يدخر السلطان الفاتح وسعاً فى سبيل تنمية القوة البحرية وإدخال

أسباب التحسين والتقدم، فأمر باتخاذ سفن جنوا والبندقية - أكبر الدول البحرية فى ذلك الوقت - نماذج تبنى على مثالها السفن العثمانية، ومن القصص الطريفة عن الاسطول العثمانى فى عهد الفاتح أنه عندما وجد فى سينوب سفينة ضخمة نادرة المثال أمر بأخذها وبناء سفن على نمطها مع إدخال التحسينات عليها.

بعد الفتح العظيم القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية

انتقل السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينية وأعلنها عاصمة للدولة العثمانية، وانتقلت إليها بالتالى دواوين الحكومة ومكاتب الموظفين الرسميين، فأخذت تغير من وجهها النصرانى وطابعها البيزنطى إلى طابع إسلامى جميل، وتحولت كثير من الكنائس إلى مساجد، وفى نفس الوقت احتفظت بكثير من صفات الفن البيزنطى القديم مع إضافة لمسات إسلامية وهو ما يعرف بالفن العثمانى، كتشييد المآذن العالية والقباب المستديرة، وكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والحكم العربية على صدور المبانى وفوق الشبابيك والأبواب. ولم تمض بضعة أيام على فتح القسطنطينية حتى ساد الأمن والسكينة ربوعها، واستأنف الناس حياتهم العادية فى ظل حكم عادل رحيم، وقويت هجرة المواطنين المسلمين إلى هذه العاصمة، لاسيما أهل العلم والاختصاص، وأهل النباهة والشرف والجاه، وسعد المسلمون برؤية عشرات المساجد وقد بنيت فى المدينة وانتصبت مآذنها العملاقة، وأصبحت أصوات المؤذنين تنساب من فوقها فى وقت واحد، معلنة عزة الإسلام، وداعية الناس

إلى الإقبال على بيوت ربهم، وأداء صلاتهم خلف ائمتهم.

ومما يعجب المرء جدّاً أن القسطنطينية بعد الفتح الإسلامى، أصبحت ملجأ العالم كله، يأمن فيها الخائف والمذعور، ويطمئن فيها المضطهد والمظلوم، وينال فيها جميع الناس العدل والمساواة والحرية على سواء، لا تمييز بين غنى وفقير ولا بين عظيم وحقير، ولقد لجأ إلى المدينة تحت رعاية السلطان الفاتح عدد كبير من عرب إسبانيا ويهودها، الذين اضطهدتهم الكنيسة الكاثوليكية وأذاقتهم أصناف العذاب، ووجدوا بها الأمن، وطابت لهم فيها الحياة.

ولم تكن القسطنطينية فى عهد الفاتح أجمل العواصم الإسلامية وأهمها فحسب، بل أصبحت مركزاً للسياسة العالمية ومحوراً لها، واعترف بجلالها وعظمتها أعداء السلطان نفسه، وتغيرت فكرتهم عن الإسلام وتبدلت نظرتهم إلى الشعب الإسلامى. وفى الحقيقة فان الفتح الذى جرى على يدى السلطان محمد الثانى لم يكن وحده دالاّ على عظمة هذا السلطان، بل إن حسن إدارته وسماحته ورحمته وعدله وفضله كل ذلك دلّ على ذلك. أيضاً، ولقد أحبت الشعوب النصرانية هذه المرايا التى تحلى بها السلطان، وفتحت قلوبها له ورضيت به حاكماً، وبعاصمته مدينة للعدل والتسامح والمحبة.

إنجازات فريدة للسلطان الفاتح

1 - سلاح جديد اسمه المدفعية

قام المسلمون بمحاولات متكررة لفتح المدينة المحصنة بأسوار لا يمكن اختراقها، ولكن بلا جدوي، إذا ما آلت القسطنطينية إلي السقوط سوف تضعف أوروبا بأكملها.

عندما بدأ صوت المدافع يهدر في الشرق، تأكد الغرب بأنه قد آن الأوان لفتح المسلمين لهذه المدينة المحصنة.

عام 1453 عاود المسلمون المحاولة مستخدمين هذه المرة سلاحًا جديدًا وقويًا لدرجة أن أسوار مدينة القسطنطينية الصلبة قد لا تتمكن من الصمود في وجهه.

إذا ما توافر هذا السلاح مع وجود قائد إسلامي حاسم، لا شك في تعرض هذا السور للانشطار ليتحول حصار القسطنطينية إلي منعطف تاريخي حاسم.

كانت مدينة القسطنطينية أغني مدينة في العالم علي مدار ثمانمائة عام، كانت مركزًا تجاريًا هامًا يربط بين آسيا وأوروبا، عندما سقطت روما في القرن الرابع الميلادي تحولت القسطنطينية إلي عاصمة للإمبراطورية الرومانية.

ولكن بعد أحد عشر قرنًا من ذلك تحولت هذه الإمبراطورية الهائلة إلي ما هو أكثر بقليل من مجرد دولة في مدينة فقيرة، حكم زعيمها «قسطنطين الحادي عشر» عاصمة مفلسة بالغت حدائقها بالنمو وخلت قصورها وتفرق أهلها.

إلا أن القسطنطينية بقيت مركزًا للكنيسة الأرثوذكسية بينما كانت روما مركزًا للكنيسة الكاثوليكية، وكانت كل منهما تغار من سلطان وتأثير الأخري، وكان الانشقاق بينهما كبيرًا لدرجة أن الكنيسة الأرثوذكسية بالنسبة لروما كانت عدوة أكبر من الإسلام، تبع ذلك إقطاعية نصرانية عنيفة، إلا أن المدينة تذكرت دائمًا كيف نهب الصليبيون الكاثوليك القسطنطينية وأرقاوا فيها الدماء عام 1204، حين كانت تحكم ثلثي الثروات في أوروبا.

وقد كتب أحد شهود العيان عن ذلك يقول: «لا أعرف من أين أبدأ بسرد كل ما فعله أولئك الوحوش، لقد كسروا الصورة المقدسة المحببة لدي المؤمنين، وانتهكوا جسد ودم المخَلِّص، استولوا علي كأس القربان ومزقوا حجارته الكريمة وشربوا منه».

ولم تستعد المدينة مكانتها السابقة عندما حصل «قسطنطين الحادي عشر» علي عرش الإمبراطورية عام 1449، فقد كانت القسطنطينية حينها محاصرة من قبل المسلمين الأشداء.

كانت القسطنطينيةقد تحولت إلي مركز نصراني وسط الإمبراطورية العثمانية التي امتدت حينها من الدانوب إلي الفرات،

بما في ذلك البوسنة، وبلغاريا، واليونان، وصربيا.

حاول المسلمون منذ بداية القرن السابع الميلادي إبعاد المدينة عن الإمبراطورية البيزنطية، وقد استشهد الصحابي الجليل «أبو أيوب الأنصاري» رضي الله عنه وهو يجاهد من أجل فتح هذه المدينة عام 674 ميلادية.

تمكن السور المنيع من صد غزوات بعد أخري ليؤكد أنه كان من أقوي الحصون في العالم، بعد ثمانمائة عام علي استشهاد «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله عنه أعلن سلطان عثماني هو محمد الثاني قائلا: «لا أريد سوي شيء واحد.. أعطني القسطنطينية».

هذا القائد الطموح الذي بلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا أصر علي مهاجمة المدينة أثناء حصارها، كان يتطلع إلي نشر الإسلام في أرجاء الإمبراطورية الرومانية في أوروبا كلها، وكان لابد أن يبدأ بفتح مدينة القسطنطينية.

كان السلطان الشابّ متعلمًا في مجال العلوم واللغات وغيرها وشغوفًا بالأفكار الجديدة، فحرص علي أن يعد رجاله بأحدث الأسلحة.

أراد «محمد الثاني» أن يترافق اسمه بصفة الفاتح، القائد المسلم المجاهد الذي فتح الله علي يديه القسطنطينية، وقد وقف الإمبراطور قسطنطين هذه المرة في وجهه.

كان قسطنطين فخورًا بميراثه، كانت المدينة حياته وهو مستعد للدفاع عنها حتي الرمق الأخير، فعل قسطنطين كل ما بوسعه في

سبيل الاحتفاظ بالقسطنطينية وبذل «محمد الثاني» كل شيء ممكن كي يتم فتح القسطنطينية ويتابع نشر الدعوة الإسلامية.

في شتاء عام 1451 قطع الإمداد عن المدينة، وبني حصونه الخاصة التي أسماها بالحصار الرملي، بلغت سماكتها خمسة وعشرين قدمًا وأنجزت بالكامل خلال أربعة أشهر، من هناك كان محمد الثاني يسيطر علي مضيق البسفور من أشيق مناطقه.

استطاع السلطان من قلعته الجديدة أن يسيطر علي سفن القسطنطينية فقبض علي الخط الحيوي للمدينة، ما كانت السفن المحملة بالحبوب الأوكرانية قادرة علي عبور المدافع العثمانية، عندما أمر «محمد الثاني» سفنه الحربية بدخول بحر المرمر كان الحصار مكتملاً وكانت القسطنطينية منقطعة عن العالم.

بلغ قسطنطين مرحلة اليأس حتي أنه طلب العون العسكري من الكنيسة الكاثوليكية المعادية له وبعث بالهدايا إلي السلطان واعدًا بأن يزيد من كميات الذهب، رفض «محمد الثاني» هذه الوعود ولكنه قدم عرضًا لقسطنطين بأن يمنحه الأراضي في اليونان وحرية العبادة للسكان مقابل المدينة.

رفض قسطنطين كان يتشبث برمزية ما تعنيه هذه المدينة له وللنصاري من ميراث الإغريقية القديمة والرومان، وقد ورد في رسالته الأخيرة لمحمد الثاني أنه من الواضح تمامًا أنه عازم علي مواصلة جهوده من أجل الحصول علي القسطنطينية وأنذره بأوخم

العواقب وهدده بأقصي الحروب للحيلولة دون ما يريد.

وفي يوم السادس من أبريل نصب السلطان خيمته الحمراء والذهبية خارج أسوار المدينة، نظر المدافعون عن المدينة إلي الحشود التي أمامهم في مخيم العثمانيين، كانوا يتفوقون عليهم بنسبة ثلاثة أضعاف.

توسطت جيش السلطان مجموعات كبيرة من المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام حديثًا من مناطق معروفة بشدة رجالها كالبوسنة وصربيا وألبانيا والتي كانت تنضوي تحت لواء الإمبراطورية العثمانية للمشاركة في الحرب علي المدينة.

منح محمد الثاني الفرصة الأخيرة لقسطنطين، فبعث له بسفير يحمل علمًا إلي المدينة وكتابًا يقول: «إنني ادعوك إلي الإسلام وإن أبيت فاحقن دماء شعبك وإني أعطيك الأمان أنت وجميع المواطنين، ولن أسبب الأذي لأي من أبناء عائلتك أو ممتلكاتك إذا ما استسلمت لي طوعًا».

رفض قسطنطين الرسالة الأخيرة فهاجمه «محمد الثاني» رغم التوقعات أُجبرت قوات السلطان علي التراجع فكان النصر الأول لقسطنطين، فاجأته الهزيمة فأُجبر السلطان علي تغيير تكتيكه فجاء بالمدافع كي تحطم أسوار المدينة المنيعة.

كانت جميعها مدافع عملاقة هي أكبر ما صنع حتي ذلك الحين، بلغ طول المدفع تسعة وعشرين قدمًا من الصمام وحتي الفوهة

يبلغ وزن قذيفته نصف طن تصل إلي مسافة تزيد علي الميل، وهو يحتاج إلي ستين ثورًا وأربعمائة رجل لاستعماله وهو يحتاج إلي ساعتين لتعبئته.

سمح المدفع للعثمانيين بالقتال عبر أكثر الأسلحة تقدمًا في العالم، احتشد أكثر من ستين مدفعًا كبيرًا لإطلاق النار علي أسوار المدينة، وقد كتب شاهد عيان عن ذلك يقول: «استمر الهجوم ليل نهار دون هدنة في القصف أو الهجمات، كان السلطان يأمل بفتح المدينة بسهولة علي اعتبار أنهم يفوقوننا عددًا وعدة ولن يُسمح لنا بالاستراحة من الهجمات».

عبر القصف المستمر تمكن العثمانيون من فتح عدة فجوات في الجدار إلا أن البيزنطيين كانوا يصدون الهجمات ويصلحون الأسوار، قام محمد الثاني ببناء برج حصار عالٍ، ولكن سرعان ما رآه يحترق عبر مجموعة هجومية من خلف الأسوار.

بعد اثني عشر أسبوعًا من الحصار لم تتمكن المدافع أو الهجمات المتتالية للجيوش الإسلامية من تحقيق النجاح، أوشكت عناصر من جيش السلطان علي الهرب ما أجبره علي التفكير مجددًا باستراتيجيته، كان حتي ذلك الحين يهاجم ثغرات صغيرة من الجدار الذي كان يعتد بدفاعات معززة.

كان السواد الأكبر من القسطنطينية محميًا من البحر عند الجانب الشمالي كان النصاري قد بنوا سلسلة من الصخور عبر ما

يعرف بالقرن الذهبي لمنع السفن من الدخول إلي ميناء المدينة.

قرر محمد الثاني أن يعبر هذه السلسلة بسحب عدد من سفن أسطوله فوق الحاجز الصخري الصغير، ثم أدخل ثلاثين سفينة إلي ميناء المدينة بين ليلة وضحاها، عند بزوغ الفجر تنبه سكان المدينة إلي أن المسلمين الفاتحين قد حاصروا المدينة فانهارت معنويات سكانها مباشرة إلا أن الإمبراطور قسطنطين أصر علي الدفاع عن المدينة حتي النهاية.

كيف لي أن أتخلي عن الكنائس وعن العرش في هذه الظروف العصيبة، ماذا سيقول العالم عني أرجوكم جميعًا أيها الأصدقاء ألا تقولوا في المستقبل سوي: لا سيدي لا تتركنا، وأنا لن أدعكم أبدًا أبدًا، لأنني مصمم علي القتال حتي النهاية.

بعد اكتمال الحصار أصبح علي المدافعين عن المدينة أن ينتشروا علي طول أسوار المدينة بكاملها كانت مهمة شبه مستحيلة، في تلك اللحظات لجأ محمد الثاني إلي تكتيك عبقري آخر فقد وجه كل مدافعه إلي نقطة واحدة في الجدار، بعد أقل من شهر بدأت الأسوار تتهاوي.

وقعت حادثة مهمة كان لها أثرها في رفع الروح المعنوية للمجاهدين المسلمين، عثر مجاهدان من المسلمين علي قبر الصحابي الجليل «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله عنه إلي جانب أسوار المدينة، وكان قد قدم لفتحها منذ قرون لكنه استشهد وعد

ذلك مبشرًا بالنصر الإسلامي هذه المرة.

أما سكان المدينة فقد رأوا نذيرًا من نوع آخر، كانت تقاليدهم تؤكد أن مدينة القسطنطينية لن تسقط طالما بقي القمر في السماء، ولكن ليلة الرابع والعشرين من آيار (مايو) من ذلك العام شهدت المنطقة خسوفًا كاملاً للقمر وحل الظلام الدامس مدة ثلاث ساعات.

بعد أربعة أيام من ذلك وبعد الغروب بقليل بدأت المدينة المنيعة تتداعي، واعتكف الإمبراطور وحده في الليل لأن الفجر سيحمل له ما لا يرغب فيه، ووضعت الأيدي علي القلوب بعد أن ارتفع هدير المدافع الثمانية أكثر فأكثر.

أحد قادة المدينة كتب عن ذلك يقول: «عيارات البنادق وقرع الأجراس وصوت الأسلحة الممزوج بصراخ المقاتلين من الرجال والناس كل ذلك كان يشكل ضجيجًا يوحي باهتزاز الأرض».

مع بزوغ أنوار الفجر الأولي وصلت أنباء عن اختراق ثغرة في الجدار، بعد ذلك وصل أول الجنود العثمانيين لتوضع بهذا نهاية ألف عام من تاريخ الإمبراطورية الرومانية بسقوط آخر وريث للإمبراطورية الرومانية البيزنطية. وبدأت طلائع الجنود المسلمين تحصد ثمار حصار المدينة.

الله أكبر، الله أكبر..

انتهت الإمبراطورية الرومانية ومات الإمبراطور قسطنطين وبقيت مقبرته اليوم للتاريخ، علي مسافة قريبة من الكنيسة عُثر

علي جثة من دون رأس وقد عثر في قدميه علي حذاء رسم عليه نسر برأسين، يعتقد الكثيرون أن هذه كانت جثة قسطنطين الحادي عشر آخر إمبراطور روماني، ربما كان قبره هناك.

أطلق علي القسطنطينية اسم استانبول قلب الإمبراطورية العثمانية التي أثبتت أنها واحدة من أقوي السلطات وأطولها عمرًا ف يالتاريخ فقد استمرت لأكثر من خمسمائة عام حتي الحرب العالمية الأولي.

يُعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية منعطفًا تاريخيّاً حاسمًا وصدمة أصابت العالم، أُقفل طريق الحرير ولم يعد الطريق التجاري نحو الشرق بين أيدي النصاري، توجهت أوروبا غربًا للبحث عن طرق جديدة فبدأ عصر الاكتشافات.

فتح «محمد الثاني» القسطنطينية بنيران المدافع، منذ عام 1453 أصحبت المدفعية سلاحًا في يدي جميع الجيوش الناجحة في التاريخ.

2 - صاحب أشهر خطة عسكرية

من أشهر الخطط العسكرية في التاريخ والتي لا تزال تدرس حتي اليوم في كليات أركان الحرب، ما فعله محمد الفاتح في فتح القسطنطينية، فقد وصل بسفه المحملة بالمدافع الضخمة إلي مضيق الدردنيل، فوجد أن البيزنطيين قد سدوا المضيق بمجموعة من السلاسل الضخمة التي تمتد بين الشاطئين تمنع السفن من العبور.

ولكن هذا لم يفت في عضد هذا القائد العبقري ولم يوقف

تقدمه، فقد قرر أن يقوم بأكبر عملية نقل أسطول بحري في التاريخ.

وقام الجيش كله بسحب السفن علي أعمدة خشبية وضعها علي البر، والتف من خلف السلاسل.

ونزل الأسطول في البحر مرة أخري وفوجئ البيزنطيون بحركة الالتفاف التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ كله، فلأول مرة في التاريخ العسكري يجرؤ قاذد علي نقل سفنه البحري بما تحمله من مدافع ثقيلة ومؤن وعتاد، ويصعد بها قمة الجبل، ثم يهبط بها إل يالبحر ليواجه عدوه، وكانت نتيجة المفاجأة أن سقطت المدينة في قبضته بأقل الخسائر.

فهذه القصص تدلنا بوضوح علي أن تفوق المسلمين الحربي وانتصاراتهم التاريخية لم تكن نتيجة الحماس والشجاعة وحدهما، ولكن كان هناك تنظيم وترتيب، وكان هناك تخطيط ومكيدة، وكانت هناك خبرة بفنون الحرب.

وهكذا وضع محمد الفاتح خطة عبقرية تحدث عنها المستشرقون وقالوا إن هذا الرجل سبق الإسكندر الأكبر ونابليون.

وسر عبقرية الفاتح أنه قام بوضع خطته بعد تحديد أسباب الفشل في الفتح بحلها واحدًا تلو الآخر، حيث أدرك كما يقول المؤرخون لحياته هذه الأسباب في:

أولا : عدم وجود حصن للمسلمين أمام سور القسطنطينية: فقرر بناء الحصن في مدة زمنية لا تتعدي الثلاثة أشهر، فجمع العمال

واختارهم من العماق المتقنين المَهَرَة، وحفَّزهم بقوله «أتحبون أن تكونوا من أتباع رسول الله يوم القيامة، وتكونوا من الذين قال فيهم «ولنعم الجيش جيشها؟!» وتم بناء قلعة عظيمة يستغرق بناؤها سنة كاملة في 3 أشهر فقط.

ثانيا: عدم وجود مدفع قوي لدك الأسوار: فقرر أن يتم اختراع مدفع جديد، وكانت فكرة الاختراع موجودة عند عالم مجَرِي قام الرومان بسجنه في سجن داخل القسطنطينية، فقرر محمد الفاتح أن يقوم بفكِّ أسره، وذلك عن طريق حفر نفق يمر أسفل الخليج وأسوار المدينة ليصل لغرفة الأسير، وقام بحفر نفقين بدلاً من نفق واحد، حتي يتخلص من تراب الحفر في مياه البحر حتي لا يعرف الرومان بما يجري، واعتمد في تحديد موقع الأسير علي الجواسيس، وبالفعل نُفِّذت الخطة وتم تحريره، وقام بتنفيذ المدفع في 3 أشهر أخري، وصار المدفع جاهزًا للاستخدام، وكان وزنه مئات الأرطال يقوم بجرِّه 100 ثور ومعهم 100 رجل من الأشـدَّاء، وأثناء تجربة المدفع سُمع دويُّه من علي بُعد 13 ميلا، وسقطت القذيفة علي بعد ميل كامل، وحفرت في الأرض حفرة عمقها 6 أقدام.

ثالثا: السلسلة الموجودة بعرض الخليج، كانت هذه السلسلة تعوق دخول أسطول المسلمين إلي داخل الخليج حتي تصل إلي الأسوار، ولهذا قرر أن يقوم بعمل فريد من نوعه، فقام بعمل ممرٍّ تسير فيه السفن خلال الجبل حتي تصل مباشرة إلي داخل الخليج بدون المرور عبر السلسلة، وهذه المسافة تُقدَّر بـ3 أميال، واستعمل

في ذلك قضبانًا خشبية، دهنها بالزيت لتسهل من حركة السفن، وكان عددها 70 سفينة، واستعمل في جرِّها مئات الثيران ومئات الرجال، واستغرق نقل السفن من بعد غروب الشمس حتي ما قبل الفجر حتي يُفاجئَ الرومان واستغرق الحصار 53 يومًا، وفي الليلة السابقة لبدء الهجوم قام باستعمال الهتافات الحماسية والأناشيد الإسلامية، وإكثار الصلاة والسلام علي رسول الله ﷺ وعقب فتح القسطنطينية صلي الجيش كله ركعتين.

وبذلك تحقق وعد رسول الله ﷺ وتمكن المسلمون العمالقة من تحقيق حلم ظلَّ يراودهم عبر السنين، واكتملت قصة النجاح العظيم علي يد شاب في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن استعصي علي الأمة 800 سنة.

3 - محمد الفاتح رجل الدولة المستنير

الإمارة العثمانية الذي ظهرت بغزواتها علي مسرح التاريخ في بداية القرن السادس عشر، وعلي نحو ما هو كائن في مؤسسات الدولة تبنت الأعراف التركية والإسلامية في حياتها العلمية والثقافية.

وبمرور الوقت تمكنت من وضع نظام عثماني يتضمن جوانب جديدة للانفتاح من خلال النظم والقوانين وتطبيقاتها. فأوائل السلاطين العثمانيين الذين أمضوا حياتهم بالفتوحات عرفوا قيمة العلم في كل وقت فقربوا العلماء وجعلوهم ملازمين لهم واتخذوهم مستشارين ومنشيئ مؤسسات ورجال دولة.

وفي إطار هذه المفاهيم جعلوا ديدنهم إنشاء المؤسسات العلمية وشجعوا من حولهم علي ذلك. والسلطان محمد الفاتح الذي نشأ وتربي علي مثل هذه المفاهيم والأعراف، وأصبح ذا شخصية قوية متعدد المواهب، فحقق تطورات جذرية وكان هدفه تحويل الدولة العثمانية إلي دولة وإمبراطورية عالمية.

ومن المهم هنا أن نجري تقييما حول التطورات التي حققها الفاتح في الحياة العلمية وفي نظام التعليم.

فقد كانت هناك تطبيقات بدأت في عهد تأسيس الدولة العثمانية وأخذت شكل المؤسسات في عهد الفاتح فأعطت أجمل ثمارها، وعلي رأسها استشارة العلماء.

هذا التطبيق أخذ شكلا نوعًا من المجلس استشاري شبه الرسمي، وفي عهود مبكرة شغل العلماء مناصب مهمة في البيروقراطية المركزية مثل عضوية الديوان الهمايوني، أي الوزارة، والوزارة العظمي، وقضاء العسكر والدفتردارية والنيشانجية وغيرها.

وأبرز مثال لهذه التطبيقات في هذه الفترة نراه في مكانة الذين نشأوا من آل جاندرلي، حيث نجد خلال القرن ونصف القرن الذي سبق فتح اسطنبول أفراد أسرة الجاندارلي في العلوم والإدارة إلي جانب آل عثمان وفي خدمتهم. وأفراد هذه الأسرة الذين تربوا ونشأوا جميعا في المدارس شغلوا في البداية منصب القضاء ثم قاضي العسكر ثم ترقوا إلي الوزارة ثم إلي الوزارة العظمي أي

أعلي المناصب في الدولة، ساهموا بأفكارهم وأفعالهم في تشكيل المؤسسات العسكرية والعلمية والإدارية. والضربة التي أنزلها الفاتح في آل جاندار الذين يعتبرون أول أسرة علمية ووزرة لدي العثمانية قضت علي نفوذهم وقوتهم.

ومما لا شك فيه أن أحد أهم العناصر التي بثت الروح في الحياة العلمية لدي العثمانيين هو الأسفار التي كان هدفها تحصيل العلم وتعليمه. والأسفار عادة مهمة وعميقة الجذور في العالم الإسلامي، فقد حضت الأحاديث النبوية للقيام بها.

ويلاحظ في العصور الوسطي التي شهدت نهضة المسلمين كثرة التحركات بالرغم من صعوبة المواصلات، فكان أساتذة المدارس وطلابها يقصدون جميع المراكز العلمية الكبيرة في العالم الإسلامي في فترات زمنية معينة، متحدين الصعاب في طرق الوصول إليها.

فالطلاب الذين يصلون في دراستهم إلي مستويات معينة في الدولة العثمانية يتوجهون إلي القاهرة وسمرقند وبخاري وما وراء النهر وبغداد والشام وغيرها من المراكز العلمية المعروفة في العالم الإسلامي في تلك الفترة لإكمال تحصيلهم بتوصية من أساتذتهم، ويعودون بعد سنوات إلي بلدانهم علماء ناشئين في علوم الدين والثقافة والحضارة والجغرافيا الإسلامية، فتعرف شهرة المدينة الفلانية بالعالم الفلاني بواسطة الذين ذهبوا إلي هناك ثم عادوا وكذلك بواسطة الأساتذة الضيوف القادمين منها، فينصحون بها

الطالب الذي يريد السفر لتحصيل علمه الأكاديمي.

وهناك وجه آخر مختلف لهذا النوع من الأسفار، ألا وهو قدوم علماء مشهورين من إمارات الأناضول ومن المراكز العلمية الشهيرة الأخري إلي الديار العثمانية بصفة أساتذة ضيوف بدعوة وتشجيع فعلي من السلاطين العثمانيين، وأغلب هؤلاء الأساتذة استقروا في العاصمة العثمانية، كما كان من بينهم من بقي فيها فترة قصيرة أو طويلة.

ومن أبرز الأدلة علي ذلك كُنَي العلماء في المدارس العثمانية في عهد التأسيس حيث نجد فيهم العربي والأعجمي والطوسي والسمرقندي.

فعهد مراد الثاني ثم عهد محمد الثاني الذي تلاه، له كثير من المزايا المختلفة من هذه الناحية، فإلي جانب تشكيل المشيخة الإسلامية (1425)، وإنشاء المدارس الكبيرة في أدرنة وبروسة والمدن الأخري، نلاحظ نمو وانتشار التيارات العلمية والصوفية، بحيث يمكننا اعتبار فترة الإعداد الثقافي للفتح الكبير.

هؤلاء العلماء الذين نشأوا علي يد أساتذة من أمثال سعد الدين التفتازاني (وفاته 1389/ 791) والسيد الشريف الجرجانى (وفاته 1413/ 816) حملوا معهم إلي الديار العثمانية التيارات العلمية والفكرية والمناظرات الفلسفية السائدة هناك، فحدثت التطورات الملموسة.

وقد خفت وتيرة هذه الأسفار الأكاديمية كثيرًا اعتبارًا من القرن السادس عشر، ويمكننا أن نقول بأن فقدان هذا التحرك العلمي

أهميته هو أحد أهم الأسباب التي أدت إلي ركود الحياة العلمية لدي العثمانيين.

إن مفهوم الحكم لدي الفاتح الذي اتخذ اعتبر نفسه وريثا لبيزنطة وروما واتخذ الإسكندر الأكبر نموذجًا، ونشأته وعلاقته بأساتذته وتصوره للعلم إلي جانب قيادته العالمية وحنكته العسكرية، كانت لها الأثر الكبير في أسلوبه في إدارة الحكم والسلطنة.

لذلك فإن مكيافيللي في كتابه الأمير اعتبر الفاتح نموذجا للحاكم المطلق. ويمكن للمرء أن يتساءل عن مدي اهتمام الفاتح بالعلم وهو الذي أمضي حياته في ميادين القتال والفتوحات.

ولكن علينا ألا ننسي بأنه كان يصحب في جميع حملاته جمعا كبيرا من خيرة علماء عصره، حيث تجري المناظرات العلمية علي طول الطريق وفي فترات الراحة، فيتابعها الفاتح بشغف، ويوجه الأسئلة، كما يشرك كثيرا من العلماء في مجالس الحرب التي تعقد كثيرا في أيام الفتح، فيستفيد من آرائهم، وبذلك يشبع هوي العلم لديه:

والمعلومات المتعلقة بحياة علماء ذلك العصر الذين اشتركوا في تلك المناظرات تعطينا فكرة حول هذا الموضوع. فالسلاطين العثمانيون الذين سبقوه وعلي الأخص أبوه مراد الثاني عرفوا قدر العلماء وأهميتهم لكن اهتمام الفاتح وتصوره كان أكثر نظاما وتخطيطا.

فالميزة التي وضعت بصماتها علي الحياة العلمية في عهد الفاتح هي المناظرات العلمية. وفي واقع الأمر فإن أصول المناظرة

العلمية ذات عراقة واسعة وعميقة الجذور في العالم الإسلامي.

فإذا تناولنا عهد الفاتح من هذه الزاوية وجدنا أنه شهد تطورا منهجيا. فشخصية السلطان الشاب لعبت هنا دورًا مهمًا. إذ لم يقتصر اهتمام الفاتح علي الإسلام بل تعداه إلي مختلف الأفكار والمذاهب والأمور المتعلقة بالعقائد النصرانية، وشعر بكثير من الراحة والسعادة من طرح العلماء الذين يثق بعلمهم، هذه المواضع للمناشقة.

ولم يكتف في بعض الأحيان بالاستماع أو الميل إلي جهة، بل وجد نفسه فعلاً ضمن هذه المناظرة العلمية.

ومما لا شك فيه أن أحد أهم المناظرات الجادة في الأمور الغيبية في العالم الإسلامي هو كتاب «تهافت الفلاسفة» الذي ألفه الغزالي (وفاته 1111) في الرد علي الفلاسفة وكتاب «تهافت التهافت»، الذي كتبه ابن رشد (وفاته 1198) في الرد عليه.

هذه المناظرة الشهيرة وعالية المستوي في الغيبيان الإسلامية في العصور الوسطي أراد الفاتح طرحها للنقاش مرة أخري، فطلب مصلح الدين خوجه زاده (وفاته 1488) وعلاء الدين الطوسي (وفاته 1482) وهما من أشهر علماء ذلك العصر إعادة تقييم آراء الغزالي، فلقي تحليل وتقييم خوجه زاده تقديرا لديه.

وقد أعد البروفسور مباهاة توركر كويل دكتوراه في تهافت الغزالي وابن رشد خوجه زاده، وحلل المسائل المتعلقة بالإنسان والغيبيات والمعجزات، وذات الله والصلة بين الله والعالم والكون.

والمعروف أن الفاتح كان يبدي اهتماما دائما بالمناظرات التي تتناول الأمور الغيبية، ومن المعروف أيضا أن مناظرة عن التوحيد جرت بحضوره بين خوجه زاده وبين منلا زيرك (وفاته 1474) وهما من كبار علماء ذلك العصر واستمرت ستة أيام.

ويقول المؤرخون البيزنطيون والغربيون بأن محمد الثاني أبدي بعد الفتح اهتماما بالنصرانية، بل ويذهبون إلي أكثر من ذلك فيدعون بأنه كان يشعر بين فترة وأخري بكثير من الإعجاب لبعض أحكامها.

وذكر هؤلاء في كتبهم بأنه ناقش بطريرك اسطنبول جيناديوس كولاريوس، وذلك البطريرك مكسيم مانوئيل في بعض الأمور المتعلقة بالعقائد النصرانية. وادعوا بأنه عندما سمع بعقيدة الكنيسة الأرثوذكسية التي تقول بعدم إبلاء أجساد الموتي اليذن طردوا من الكنيسة أراد فتح قبر من هذا النوع، ويرجع كل ذلك إلي شعور الفاتح وهو المسلم الصادق في إسلامه بالاهتمام في الأمور الغيبية.

ومن المعروف عن الفاتح اهتمامه بأفكار الحروفي، وتأثره بعض الشيء بأنصار فضل الله الحروفي، ونفوذ هؤلاء إلي القصر، الأمر الذي أقلق محمود باشا فأخبر بذلك العالم الشهير فخر الدين العجمي وكان شيخا للإسلام منذ عهد مراد الثاني، فأعد اجتماعا للاستماع إلي أفكار الحروفيين ومناقشتها.

دعا أنصار فضل الله الحروفي إلي القصر بينما جلس فخر الدين العجمي في زاوية لا يراه فيها أحد منهم ليسمع أفكارهم.

فلما خرج شيخ الإسلام من مخبئه دخل معهم في نقاش تمكن فيه من إثبات بطلان كل أفكارهم، وتكرر ذلك في القصر وبحضور السلطان فتغلب عليهم ثم دعاهم إلي المناظرة أمام الملأ في الجامع ذي الثلاث شرفات بأدرنه.

فأكد هناك بطلان أفكارهم، وتسببهم في الفتة، وأصدر فتوي بإنزال أشد العقوبات فيهم.

وفي هذه الفترة، حدثت تطورات وجهود كبيرة جدا في العلوم الدينية والفكرية والاجتماعية.

فكتاب «الدرر الحكام في شرح غرر الأحكام» الذي ألفه منلا «خسرو» في مجال الفقه وكان من شيوخ الفاتح وشغل منصب شيخ الإسلام بقي كتابا يدرس في المدارس العثمانية مئات السنين.

كما يعتبر كتاب «غاية الأماني في تفسير السبع المثاني» للمنلا غوراني من أهم كتب التفسير، فالتطورات التي تحققت في مجال الفكر والفلسفة جديرة بالتقدير والإعجاب. وهناك جهود ودراسات مهمة قام بها كل من خوجه زاده وعلاء الدين الطوسي وخطيب زاده.

وإلي جانب البعد والعمق الذي أكسبه الفاتح للتعليم المدرسي التقليدي، فإن الخدمات التي قدمها الفاتح لتطوير الأندرون التي أنشئت أساسا لتدريب وتعليم الكوادر الإدارية والعسكرية التي ستتسلم شؤون الدولة تشكل موضوعا آخر يستحق الدراسة والبحث.

النتيجة أن حكم السلطان محمد الفاتح كان بداية لعقلية جديدة

في الفكر الإداري والسياسي كما كان نقطة تحول في تشكيل المؤسسات الجديدة، وتحتل المؤسسات التعليمية مثل مدارس الصحن الثماني ومدارس الأندرون مكانة مهمة بين هذه المؤسسات.

فقد أضاف إلي المؤسسات العثمانية مؤسسات جديدة، وأضفي علي القديمة منها مفهوما جديدا ورؤية جديدة.

كما أكسب الحياة العلمية والفكرية العثمانية عمقا. وإذا نظرنا من ناحية تاريخ العلوم والثقافة وجدنا عناصر وتطبيقات كثيرة الاختلاف.

فعلاقاته بعلماء العصر، ودعوته للعلماء من مراكز العالم الإسلامي الشهيرة في تلك الفترة مثل سمرقند وبخاري والقاهرة ودمشق وبغداد، وكذلك شمول لقاءاته هذه للعالم النصراني الغربي واجتماعه بكثير من رجال العلم والدين النصاري خلافا للتعامل في تلك العهود تطور جدير بالدراسة والاهتمام.

فقد أعاد تفعيل المناظرات ذات المستوي العالي والمفيد في العصور الوسطي التي شهدت نهضة الإسلام.

وأدي إلي إحياء الحياة الفكرية المتجددة. وهناك أمر مثير آخر ألا وهو شدة اهتمام السلطان محمد الفاتح بالكتب والمكتبات التي يعتبرها السند الأساسي للعلم. وجهوده في إنشاء مكتبات الحلقات الدراسية بكلية الفاتح، وتشكيله مكتبة قصرية في مختلف المواضيع والثقافات خارج مكتبة الجامع لهو دليل واضح علي سعة أفقه.

إن اسطنبول التي كانت في مخيلة الفاتح هي المدينة العالمية

بعلمائها ومؤسساتها التعليمية في جميع المجالات.

وبالرغم من ذلك فقد عبر عن رأيه في عدم كفاية التطور في مجال العلم بالرغم مدارس الصحن الثماني، ورغبته في تخريج علماء يضاهون علماء العرب والعجم.

لذلك قال في أحد المجالس العلمية التي حضرها، إنه أسس دولة عالمية، وأنشأ مدارس متكاملة ومع ذلك أعرب عن أسفه لقدوم العلماء من بلدان أخري.

ثم اطمأن إلي ما أجابه العلماء بقولهم «إن العلم هو عرف، والعرف يتطلب وقتا طويلا لكي يرسخ، وسيؤتي ثماره بعد أن يرسخ».

4 - السلطان العادل

أمر السلطان محمد الفاتح ببناء أحد الجوامع في مدينة اسطنبول، وكلف أحد المعماريين الروم واسمه «إبسلانتي» بالإشراف علي بناء هذا الجامع، إذ كان هذا الرومي معماريًا بارعًا. وكان من بين أوامر السلطان: أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر، وأن تكون هذه الأعمدة مرتفعة ليبدو الجامع فخمًا، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري.

ولكن هذا المعماري الرومي - لسبب من الأسباب - أمر بقص هذه الأعمدة، وتقصير طولها دون أن يخبر السلطان، أو يستشيره في ذلك.

وعندما سمع السلطان محمد الفاتح بذلك، استشاط غضبًا، إذ إن هذه الأعمدة التي جلبت من مكان بعيد، لم تعد ذات فائدة في

نظره، وفي ثورة غضبه هذا، أمر بقطع يد هذا المعماري، ومع أنه ندم علي ذلك إلا أنه كان ندمًا بعد فوات الأوان.

ولم يسكت المعماري عن الظلم الذي لحقه، بل راجع قاضي اسطنبول الشيخ (صاري خضر جلبي) الذي كان صيت عدالته قد ذاع وانتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية، واشتكي إليه ما لحقه من ظلم من قبل السلطان محمد الفاتح.

ولم يتردد القاضي في قبول هذه الشكوي، بل أرسل فوره رسولاً إلي السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة، لوجود شكوي ضده من أحد الرعايا.

ولم يتردد السلطان كذلك في قبول دعوة القاضي، فالحق والعدل يجب أن يكون فوق كل سلطان.

وفي اليوم المحدد حضر السلطان إلي المحكمة، وتوجه للجلوس علي المقعد، قال له القاضي: لا يجوز لك الجلوس يا سيدي.. بل عليك الوقوف بجانب خصمك.

وقف السلطان (محمد الفاتح) بجانب خصمه الرومي، الذي شرح مظلمته للقاضي، وعندما جاء دور السلطان في الكلام، أيد ما قاله الرومي.

وبعد انتهاء كلامه وقف ينتظر حكم القاضي، الذي فكر برهة ثم توجه إليه قائلاً: حسب الأوامر الشرعية، يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصًا لك!!

ذهل المعماري الرومي، وارتجف دهشة من هذا الحكم الذي نطق به القاضي، والذي ما كان يدور بخلده، أو بخياله لا من قريب ولا من بعيد، فقد كان أقصي ما يتوقعه أن يحكم له القاضي بتعويض مالي. أما أن يحكم له القاضي بقطع يد السلطان (محمد الفاتح) فاتح (القسطنطينية) الذي كانت دول أوروبا كلها ترتجف منه رعبًا، فكان أمرًا وراء الخيال.. وبصوت ذاهل، وبعبارات متعثرة قال الرومي للقاضي، بأنه يتنازل عن دعواه، وأن ما يرجوه منه هو الحكم له بتعويض مالي فقط، لأن قطع يد السلطان لن يفيده شيئًا، فحكم له القاضي بعشر قطع نقدية، لكل يوم طوال حياته، تعويضًا له عن الضرر البالغ الذي لحق به.

ولكن السلطان (محمد الفاتح) قرر أن يعطيه عشرين قطعة نقدية، كل يوم تعبيرًا عن فرحه لخلاصه من حكم القصاص، وتعبيرًا عن ندمه كذلك.

السلطان المتسامح

دخل محمد الفاتح القسطنطينية، وغير اسم القسطنطينية إلي «إسلام بول» (أي عاصمة الإسلام)، ولكنها حرفت إلي استامبول، كما جعل أكبر كنائس المدينة (أيا صوفيا) مسجدًا بعد أن صلي فيه الجيش الفاتح بعد النصر، أما المسيحيون فلم يعاملهم بما كانوا يعاملون به المسلمين، لقد ترك لهم حرية العبادة، وترك لهم بطريقَهُم يشرف علي أمورهم الدينية.

وقد وصف فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف المنتصر المسلم من المهزوم المسيحي بقوله: إن الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن، والذي يجب ملاحظته أن أمة من الأمم المسيحية لا تسمح أن يكون للمسلمين مسجد في بلادها بخلاف الأتراك، فإنهم سمحوا لليونان المقهورين بأن تكون لهم كنائسهم، ومما يدل علي أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حكيمًا تركه للنصاري المقهورين الحرية في انتخاب البطريق، ولما انتخبوه ثبته السلطان وسلمه عصا البطارقة، وألبسه الخاتم حتي صرح البطريق عند ذلك بقوله: إني أخجل مما لقيته من التبجيل والحفاوة، الأمر الذي لم يعمله ملوك النصاري مع أسلافي.

هذه هي حضارة الإسلام ومبادئه في ميدان الحرب والتسامح مع أهل الأديان الأخري، علي خلاف النصاري في حروبهم مع المسلمين سواء في الحروب الصليبية أو في الأندلس أو في العصر الحديث في كل مكان، فإنهم يقتلون الأبرياء، ويحرقون الأخضر واليابس، ويخربون بيوت الله، ولا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة.

وكما ذكرنا من قبل فقد توجه محمد الفاتح إلي كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كثير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف النصاري داخلها خوفًا عظيمًا، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلي بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة

فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلي مسجد وأن يعد لهذا الأمر حتي تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ العمال يعدون لهذا الأمر، فأزالوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبرًا للخطيب، وقد يجوز تحويل الكنيسة إلي المسجد لأن البلد فتح عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية.

وقد أعطي السلطان للنصاري حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطي هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخري ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية علي الجميع.

كان العثمانيون حريصين علي الالتزام بقواعد الإسلام، ولذلك كان العدل بين الناس من أهم الأمور التي حرصوا عليها، وكانت معاملتهم للنصاري خالية من أي شكل من أشكال التعصب والظلم، ولم يخطر ببال العثمانيين أن يضطهدوا النصاري بسبب دينهم.

إن ملل النصاري تحت الحكم الغثماني تحصلت علي جميع حقوقها الدينية، وأصبح لكل ملة رئيس ديني لا يخاطب غير حكومة السلطان ذاتها مباشرة، ولكل ملة من هذه الملل مدارسها الخاصة وأماكن العبادة والأديرة، كما أنه كان لا يتدخل أحد في ماليتها وكانت تطلق لهم الحرية في تكلم اللغة التي يريدونها.

إن السلطان محمد الفاتح لم يظهر ما أظهره من التسامح مع نصاري القسطنطينية إلا بدافع التزامه الصادق بالإسلام العظيم،

وتأسيًا بالنبي الكريم ﷺ، ثم بخلفائه الراشدين من بعده، الذين امتلأت صحائف تاريخهم بمواقف التسامح الكريم مع أعدائهم.

أما حرية رجال الدين في طقوسهم، وإبقاء سلطتهم علي رعاياهم دون تدخل الدولة في ذلك، فقد شعر المسيحيون من سكان البلاد بالحرية في ذلك ما لم يشعروا ببعضه في حكم الروم. ولعل أحدًا منا لا ينسي موقف السلطان محمد الفاتح حين استولي علي القسطنطينية مقر البطريركية الأرثوذكسية في الشرق كله، فقد أعلن يومئذ تأمين سكانها - وكلهم نصاري - علي أموالهم وأرواحهم وعقائدهم وصلبانهم وأعفاهم من الجندية، ومنح رؤساءهم سلطة التشريع والفصل في الخصومات التي تقع بين رعاياهم، دون أن تتدخل الدولة فيها! فرأي في ذلك سكان القسطنطينية فرقًا كبيرًا بين ما كانوا يعاملون به في عهد البيزنطيين وبين معاملة السلطان محمد الفاتح لهم، إذ كان البيزنطيون يتدخلون في الخلافات المذهبية ويفضلون أتباع كنيستهم علي أتباع الكنائس الأخري.

. وعندما دخل السلطان العثماني محمد الفاتح القسطنطينية فاتحًا (857 هـ - 1453م) وكان معظم سكان المدينة قد لجأوا إلي كنيستها (أيا صوفيا) وعندما اقترب من الكنيسة بعد جولته في أرجاء المدينة سمع أصواتًا خافتة حزينة تعج بالصلوات والدعاء من داخل الكنيسة، وكان نصاري القسطنطينية يتوقعون من المسلمين الفاتحين استئصال المسيحية من المدينة، كما صنع الكاثوليك بهم قبل قرنين تقريبًا.

وعندما علم الراهب الذي يقود القداس بقدوم محمد الفاتح فتح باب الكنيسة علي مصراعيه ودخل السلطان وطالب الراهب بإتمام صلاته بالناس في هدوء وأمان، ثم أعطي السلطان الأمان للناس كي يذهبوا إلي منازلهم آمنين علي أنفسهم وأعراضهم وأموالهم.

وكما ذكرنا فقد أمر السلطان جنود بحسن معاملة الأسري والرفق بهم وحض علي تحريرهم وفدائهم ثم رعي الفاتح تعيين (جناديوس) بطريركًا للقسطنطينية (الأرثوذكسية) فاحتفي به وبالغ في تكريمه وتناول معه الطعام علي مائدته ثم قدم له عصا البطريركية وودعه ورافقه إلي باب القصر وأعانه علي ركوب الجواد المطهّم الذي أعد له وأمر وزراءه باصطحابه إلي مقره الرسمي.

فقال البطريرك في خجل من السلطان «إن الأباطرة النصاري لم يفعلوا قط مثل هذا لمن سبقني من البطاركة».

ثم أصدر الفاتح فرمانًا بمعاملة البطريرك معاملة وزراء الدولة وأمره بالنظر في أمور رعيته الروم في القضايا الدينية والمدنية.

وقد عاشت الجماعات اليهودية في خوف من الهجمات ضد السامية في البلاد الأوروبية ولعدة قرون، بينما عاشوا في تركيا بأمن وسلام. ويكفي هذا المثال وحده لإثبات التسامح والعدل اللذين أوصي بهما الإسلام.

الرحمة والتسامح والأخلاق الكريمة التي أظهرها السلطان بايزيد الثاني تميز جميع السلاطين العثمانيين. فعدنما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سمح لليهود والمسيحيين

بالعيش بحرية تامة.

كتب «انـدر ميكول» صاحب العديد من الأعمال القيمة، عن فضائل الإسلام قائلا:

«وقد عاشت الجماعات المسيحية تحت حكم عادل لم تتمتع به خلال الحكم البيزنطي اللاتيني، بل إنهم تعرضوا للاضطهاد علي يد إخوانهم. وفي المقابل أصبحت الإمبراطورية العثمانية خاصة اسطنبول مأوي لليهود الإسبان المضطهدين. ولم يجبر الناس علي اعتناق الإسلام، ولكن انتشار الإسلام جاء نتيجة طبيعية للتطورات الاجتماعية».

وكما يتضح من هذه الحقائق، لم يكن المسلمون ظالمين في أية فترة من فترات التاريخ. بل إنهم رسخوا قيم السلام أينما ذهبوا مع كل البلاد والعقائد وسلكوا سلوكا طيبا تجاه كل الناس، والتزموا بقول الله تعالي: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾(النساء: 36).

كان فتح السلطان محمد الفاتح لاسطنبول عهدا جديدا يتميز بالحرية لليهود والمسيحيين الذين تعرضوا للظلم عدة قرون علي يد الحكام الرومان والبيزنطيين.

وباختصار فإن الصداقة والأخوة والسلام والحب هي القواعد الأساسية للمبادئ والأخلاقيات القرآنية التي يحاول المسلمون التمسك بها.

نظام الملة

وابتداء من عام 1516 غدا المسيحيون العرب جزءًا من رعايا الدولة العثمانية التي عاملتهم وفقا لنظام الله، المستنبطة قواعده من أحكام الشريعة الإسلامية. إذ تألفت الرعية في الدولة العثمانية من فئتين هما فئة المسلمين وفئة غير المسلمين، واعتبرت الفئة الثانية، لاسيما المسيحيون من أهل الذمة، وهم الذين يتعهدهم السلطان بالحماية، وذلك بالمحافظة علي حياتهم وحرياتهم وأموالهم، والسماح لهم بممارسة طقوس دياناتهم وإعفاءهم من الخدمة العسكرية، وفي المقابل، يتعهد الذميون بدفع الجزية والالتزام ببعض القيود التي تجعل منهم طبقة من المواطنين، ولكنهم في درجة أدني من المسلمين والمسيحيون العرب في بلاد الشام ومصر ينقسمون إلي العديد من الطوائف الدينية أبرزها:

أ - **الروم الأرثوذكس**: كانت تسميتهم تطلق علي مجموعتين من الكنائس المسيحية، الأولي هي: الكنائس المسيحية البيزنطية المنشقة عن الكنيسة الرومانية، وبرز أتباعها منذ القرن الحادي عشر للميلاد في كل من روسيا واليونان ودول البلقان والبلاد العربية، ثم المجموعة الثانية وتشمل أربع طوائف مسيحية تقول أيضا بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وتتكون من السريان والأقباط والأحباش والأرمن. ولقد انتشر الروم الأرثوذكس في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، وكانوا يؤلفون ثلاث بطركيات هي: بطركيات أنطاكية، والقدس، والإسكندرية. وكانت تقام الطقوس الدينية باللغة اليونانية، وظلت المقامات الرئيسية في

البطركيات الثلاث تحت احتكار اليونانيين مما جعل الأرثوذكس العرب يسعون إلي التخلص من هذا النفوذ، الأمر الذي كان عاملا في إذكاء الروح القومية لديهم.

وأقدم السلطان محمد الفاتح علي تنظيم شؤون الكنيسة الأرثوذكسية بأن جعلها كلها ملة تحت سلطة البطريرك وباسم (روم ملتي) أي ملة الروم، وتعني كلمة الروم في الاصطلاح الإسلام روما الشرقية أي بيزنطة.. وقد تم منح البطريرك رتبة باشا، وخصص له محكمة وسجن في حي الفنار، ومنح كل الصلاحيات علي رعاياه حتي غدا مسؤولا عنهم، كما ألقي عليه عبء الإشراف علي جمع أموال الجزية ومسؤولية دفعها للخزينة، وترك له أمر توزيع مقدارها بين أفراد الطائفة.

ب - **طائفة الكاثوليك**: وبرزت بوفاة تيودرسيوس الكبير عام 295 حيث تأصل الانقسام في الكنيسة المسيحية، وبدا النفور بين الكنيسة الشرقية في القسطنطينية والكنيسة الغربية في روما في القرن الحادي عشر، وبقي الكاثوليك ملة ملحقة بإحدي الكنائس الأرثوكسية أو الأرمينية في ظل الدولة العثمانية، ولم يكن تعداد الكاثوليك كبيرا بين المسيحيين حتي الربع الأول من القرن الثامن عشر، مع بداية حركة التبشير الأوروبية، وتم تحويل العديد من أبناء الطائفة الأرثوذكسية إلي صف الكاثوليكية، ولقد انقسم الكاثوليك في الولايات العربية إلي أربع طوآئف أو كنائس أساسية، لكل منها بطريرك خاص بها وهم الموارنة والروم الكاثوليك والسريان الكاثوليك والكلدان

الكاثوليك، وقد كانوا مستقلين عن الكنائس الأوروبية وجميع رؤسائها من أهل البلاد.

ج - **طائفة الأرمن:** لم تعترف الدولة العثمانية بالأرمن ملة إلا في عام 1641 وذلك لأن زعيمها الروحي كان يقيم خارج حدود الدولة العثمانية. ولقد ضمت الملة الأرمينية بين أطرافها جميع رعايا السلطان الآخرين غير المعترف بهم كملة مستقلة (السريان والأحباش والأقباط). وانقسم الأرمن في سوريا إلي أرثوذكس وكاثوليك بعد أن كانوا حتي القرن السابع عشر من اتباع الكنيسة اليعقوبية (اليعاقبة)، ثم انشق بعضهم بعد ذلك ونصبوا بعد عام 1739 بطريركا كاثوليكيا، وقد كان لطائفة الأرمن القديمة كنيسة صغيرة في دمشق (مار سركيس) وألحقت بالكنيسة الأرثوذكسية مدرسة ابتدائية تدرس الأرمينية. أما الأرمن الكاثوليك، فقد أنشأوا لهم كنيسة صغيرة بعد عام 1860 بالقرب من دير الرهبان اللعازريين، وكان بطريرك الأرمن اليعاقبة يقيم في القدس، بينما استقر بطريرك الأرمن الكاثوليك في بيروت.

د - **الموارنة:** وهم جماعة من السريان السوريين، ينتسبون إلي الراهب (مار مارون) وكان الموارنة يتبعون الكنيسة الشرقية، ثم تحولوا إلي الكنيسة الغربية ولكنهم احتفظوا بطقوسهم الشرقية وظلوا يؤدون عباراتهم باللغة السريانية، ثم أخذت الجمعيات الكاثوليكية تهتم بتعليمهم اللغة الفرنسية عن طريق

مدارسهم المنتشرة في جبل لبنان، الأمر الذي جعلهم فيما بعد أكثر ميلا نحو فرنسا، وكان للموارنة أسقفيتان الأولي في دمشق والثانية في بعلبك.

هـ - البروتستانت: بدأ نشاط البعثات البروتستانتية في بلاد الشام علي نطاق واسع منذ عام 1820 حين أسس الأمريكان أول مركز إرسالي لهم في بيروت، رأي فيه المسلمون والسلطات العثمانية بوادر تسلل استعماري إفرنجي، بالإضافة إلي صفتهم التبشيرية، وكذلك رأي الأرثوذكس والكاثوليك فيهم تهديدا خطيرا لوحدة كنائسهم لكن البروتستانت ثابروا علي عملهم، وامتد نشاطهم إلي دمشق، وحلب وحمص، وحماة، وجبال النصيرية. وتمتعوا بحماية قناصل بريطانيا والولايات المتحدة.

هذا ولم تعترف السلطان العثمانية رسميا بالطائفة البروتستانتية إلا عام 1850. أسست الطائفة البروتستانتية أسقفية في القدس وسائر البلاد العربية، كما انشأت كنيستين في دمشق بنيت الولي عام 1864 والثانية عام 1868.

ومن المعلوم أن هذا المذهب قام علي أساس تلاوة الإنجيل باللغات التي يفهمها الناس، ولذلك سعي أتباع هذا المذهب - منذ نشأته - إلي ترجمة الكتاب المقدس إلي مختلف لغات العالم، ومنها العربية، وبذلوا جهودا جبارة لتعلم اللغة العربية، حتي صارت الصلوات والتراتيل والمواعظ الدينية تقام باللغة العربية فقط في جميع الكنائس والمدارس البروتستانتية.

و - **الأقباط**: ينتمي هؤلاء إلي الكنيسة المونوفوستية أو الأحادية الطبيعية، وتؤمن بعقيدة أن للمسيح شخصا وطبيعة واحدة، وقد انقسمت هذه الكنيسة إلي فرعين هما: اليعاقبة في سوريا والأقباط في مصر، وقد تعرضت الطائفتان إلي الكثير من أذي الارثوذكس واضطهادهم، وكان عدد اليعاقبة في بلاد الشام يقرب من 50 ألف عائلة في القرن السادس عشر أما الأقباط (الكنيسة القبطية) فلم يقتصر وجودهم علي مصر، بل امتدوا إلي القدس والحبشة وبلاد النوبة، وكانت رئاستها منوطة ببطريكيتهما في القاهرة، لكن بعد الفتح العثماني للبلاد العربية، أخذ أتباعها بالتناقص تدريجيا نتيجة دخول أعداد كبيرة منهم في الإسلام.

أطلق العثمانيون علي هذه الجماعات أو الطوائف اسم (ملة) وعلي الشخص المسؤول عن إدارتها لقب (ميليت باشي) وبالتالي كان علي كل طائفة أن تخضع لرئيسه الروحي كالبطريرك الذي أعطي سلطات واسعة في إدارة أملاك وأموال الكنائس والأديرة، وهو ما أدي إلي اتساع نطاق إشرافه علي شؤون الكنيسة ورعاياها الدينية والمدنية والاجتماعية والثقافية والقضائية.

ظهر نظام الملة هذا تدريجيا نتيجة جهود الإدارة العثمانية الآخذة بعين الاعتبار بنية وثقافة المجموعات الإثنية الدينية العديدة التي حكمتها، إذ تركت الدولة العثمانية المجال مفتوحا أمام التعددية الدينية والثقافية والإثنية في نطاق هذه الجاليات،

ومنحتهم حقوقا مدنية ودينية لم يكونوا يتمتعون بها قبل العهد العثماني، ومن جهة أخري سمحت باندماجها في النظام السياسي والاقتصادي والإداري العثماني، وعليه فإن الدولة كانت نادرا ما تتدخل في شؤون أهل الذمة ما داموا يؤدون الضرائب بانتظام وملتزمين بالمنظومة الأخلاقية العامة للمجتمع الإسلامي.

وإذا أضفنا إلي هذه الحرية النسبية التي كانت تعطي مقابل دفع الجزية عنصر إبعاد هذه الطوائف عن مواقع الهيئة الحاكمة، ادركنا سبب توجه هذه الطوائف نحو الاعتماد علي التجارة والخدمة المالية للدولة وهي التوجهات التي برزت في سياق عاملين اثنين:

أولهما: عودة التجارة الغربية إلي حوض البحر الأبيض المتوسط ابتداء من أواخر القرن السادس عشر محمولة ومدعومة بالامتيازات الأجنبية، التي كان من شأنها تسهيل التجارة الغربية في الداخل ومد شبكة التسويق الداخلي وتوسيع حلقات التبعية عبر المدارس ومعرفة اللغات الأجنبية الأمر الذي احتلت معه نخب الطوائف المسيحية وشرائح التجار فيها، وذلك من خلال عملهم كمترجمين ووكلاء محليين ودائنين ووسطاء، مواقع مهمة في هرم الثروة والسلطة. وفي مصر كان الأقباط يقومون بأعمال الصرافة والصناعة النسيجية والتجارة والصياغة خاصة أن هذه الطوائف أصبحت في بعض المحافظات حكرا علي المسيحيين واليهود فقط. هذا في وقت كان الاختراق الغربي يؤدي من جهة أخري إلي تقهقر فئات اجتماعية أكثرها من المسلمين وذلك عبر انسحاقها

تحت وطأة السلعة الاستهلاكية الأوروبية، التي بيعت بأسعار أقل وساهمت في تدمير الصناعة المحلية التقليدية.

ولقد لعب المسيحيون دورا أساسيا في هذه العملية كوسطاء بين الصانع الرئيسي والمشتري المحلي، ونتج من هذه العملية تدمير حياة الكثير من العائلات المسلمة، ومن بينها الحرفيون والتجار، الذين عجزوا عن تطوير تقنيات إنتاج جديدة بكلفة أقل، وتم هذا وسط المنافسة القوية بين الدول الأوروبية لاكتساب مواقع داخلية في التركيب الاجتماعي الداخلي، ولإجراء عمليات تقسيم لمناطق الدولة العثمانية بعد دخول الرأسماليات الغربية مرحلة التوظيف المالي في الخارج ومرحلة السيطرة المباشرة والاستلحاق.

أما العامل الثاني فقد تمثل في الحماية التي حصل عليها المسيحيون وفي التعليم الذي قدمته البعثات التبشيرية لهم، والتي أعدته بشكل خاص ليخدموا كوكلاء للتجارة والمصالح الدبلوماسية الأوروبية، وتوسعت الامتيازات الأجنبية وسمحت للقناصل بمنح المسيحيين الحماية التجارية، التي شملت امتيازت أخري، منها: دفع ضرائب زقل من التي يدفعها المسلمون عن الاستيراد والتصدير فضلا عن حصولهم علي جنسيات موكليهم من التجار الأوروبيين وعلي الرغم من أن المسيحيين واجهوا ملاحقة الأكثرية المسلمة لهم، فإنهم بدأوا بعد عام 1860 يتمتعون بعهد جديد من الحماية نتيجة ضغط أوروبا المتزايد علي الدولة العثمانية لضمان حمايتهم، الأمر الذي أهلهم للسيطرة علي زمام الأمور المالية من خلال

المصارف التي تقرض الحرفيين والملاكيين والفلاحين المسلمين وهو ما أعطي المسيحيين ضمانة لتقدمهم الاجتماعي والاقتصادي.

أما بشأن الملك العثماني وانعكاساته علي وضع المسيحيين العرب في الدولة العثمانية، يمكن القول إن كل هذا حوّل النظام المالي العثماني إلي نظام حماية للأقليات. وبهذا استوعبت الامتيازات الأجنبية النظام، ومهدت لإمكانيات التدخلات الأجنبية الرسمية وحماية الفرق الدينية، وتوسيع حقل حقوقها في ميادين العبادة والطقوس والضرائب.

كما أنها حولت الملة غير الإسلامية إلي وجود يرتكز إلي مفهوم الأقلية القائمة علي الحماية، ومن خلال توظيف استقلالية الملة المستوعبة بصيغة رعايا السلطان في مفهوم بين الملة والأمة، وفي هذا السياق يجدر بنا أن نطرح التساؤل التالي: ما هي الآثار التي ترتبت علي الأخذ بنظام الملل العثمانية (وكيف انعكس علي وضع المسيحيين العرب في الدولة العثمانية؟) لقد كان الشعار العثماني الأساسي في التعامل مع الأقليات الطائفيّة (فرض الطاعة عليهم وجباية الميري منهم) ومن هنا قسموا السكان إلي مسلمين ورعايا، معترفين للأقليات الطائفية بالاستمرار في تصريف أمورها المعيشية والدينية علي قاعدة نظام الملل، الذي لعب دورا كبيرا في تفسيخ المشرق العربي إلي دويلات، وتعميق الروح الانفصالية بين سكان السلطنة، وأعطي رجال الدين وزعماء الطوائف دورا مهما في تنشيط الدعوة إلي التجزئة ورفض الحكم العثماني والارتباط بالغرب.

وساعد نظام الملل المسيحيين العرب علي استيعاب مبادئ المجتمع المدني، إذ دمج بينهم وبين الجاليات التجارية الغربية ولم يشكل الدين أي حاجز في التفاعل بين المسيحيين والغربيين. كما شكله لدي المسلمين وساعدت الامتيازات الأجنبية بموجب قوانين التنظيمات العثمانية المسيحيين علي التحول إلي ملل من الأقليات الدينية ولكنها واسعة الامتيازات، خصوصا أن السلطنة نفسها اعترفت بحقوق الدول الأوروبية في حماية الأقليات المسيحية من أهل الذمة المقيمين في دار الإسلام.

وكان نظام الملل في القرن التاسع عشر وسيلة مباشرة لتحقيق ما تصبو إليه الدول الغربية من التدخل في شؤون الدولة العثمانية، فأعلنت فرنسا حماية ورعاية مصالح الموارنة والكاثوليك. وتولت روسيا حماية مصالح الأرثوذكس، كما أعلنت النمسا وإيطاليا حماية مصالح الروم الكاثوليك، وأيدت إنكلترا البروتستانت. ولقد جاء هذا التدخل بطرق مختلفة، منها المدارس والمؤسسات العثمانية والإرساليات التبشيرية، الأمر الذي زاد من دور اللغات الأجنبية لاسيما الفرنسية والإنكليزية والروسية، وحسن من وضع هذه الأقليات الدينية وقوي مركزها وزاد في استقلالها الذاتي، ولكنه في الوقت نفسه جلب عليها نقمة الدولة العثمانية والغالبية المسلمة من السكان التي أخذت تنظر إليهم بعين الحذر وأنهم آلة بيد السياسة الأجنبية.

ومما زاد في هذه النقمة إقبال هؤلاء علي الثقافة الأجنبية

واستعانة هذه الدول بهم في الأعمال الكتابية في قنصلياتهم ومؤسساتهم الدينية والثقافية والتجارية وتقليدهم للغربيين في اصطناع أسلوب التجارة والصناعة مما أدي إلي تفوقهم الاجتماعي فقد عومل التجار العثمانيون والمسلمون المحليون معاملة دونية قياسا بالأوروبيين والخاضعين لهم من الأقليات الطائفية كما ساهمت الإساليات في تفوقهم الثقافي، وهو ما زاد من حقد الأكثرية المسلمة عليهم.

لقد أدت الأوضاع إلي عزلة هذه الطوائف وتشكيل مجموعات شبه مستقلة تمارس نمطًا من الحياة الخاصة، التي تثير نقمة المسلمين وتغذي إحساسهم بالريبة والشك بولاء هذه الطوائف، وتدفعهم أحيانا إلي الاعتداء وبمرور الزمن كبرت الحواجز بين هذه الجماعات وتحول ما كان نشاطا دينيا إلي مجموعات وطنية، ولم يصبح الولاء الديني هو الأساس لديهم وأصبحت كلمة ملة تعني أمة، الأمر الذي جعل فكرة القومية تنمو بين المسيحيين أولا، ومن ثم بين المسلمين في الدولة العثمانية إذ تغلغلت الفكرة إلي مدي مهم من خلال البنية الاجتماعية الإثنية والهوية الدينية التي أحدثها نظام الملل العثماني فهذه الجماعات ربطت نفسها بروابط من المواطنة العلمانية والذكريات التاريخية لهويتها الجماعية، وكانت القيم الاجتماعية والسياسية عامة تتحد من خلال خبرتها الطويلة في نظام الملة، فالقومية بمعني الهوية القومية الإثنية استخلصت جوهرها من التجربة المجتمعة الدينية في نظام الملة.

(9)
وفاة السلطان محمد الفاتح

لكل أجل كتاب

وفاة السلطان محمد الفاتح

وبعد أن حكم هذا الفاتح الكبير إحدى وثلاثين سنة، حقق فيها من جسام الأعمال الشىء الكثير، وفتح عهداً جديداً فى العالم الإسلامى، وغير مجرى تاريخ العالم كله، جاءه الأجل الذى لا يرد فمات -رحمه الله تعالى- وسط جيشه، فى ليلة الجمعة الخامس من ربيع الأول سنة 886 هجرية «3 مايو 1481م» وهو في الحادية والخمسين من عمره (رحمة الله تعالى عليه).

وقصة وفاته تدلنا على عظمة هذا السلطان الجليل، وتزيد القارئ احتراماً وإجلالاً لشخصيته، فقد انتقل السلطان من إستانبول العاصمة إلى إسكدار فى السادس والعشرين من شهر صفر سنة 886 هجرية، وكان قبل مغادرته عاصمة ملكه قد انتابته وعكة خفيفة لم يحفل بها، وفى الطريق اشتد به المرض وثقلت وطأته، ولم تمض أيام قليلة على ذلك حتى وافته المنية، ورفعت روحه الطاهرة إلى بارئها. هذا وفى الوقت الذى انطفأت فيه حياة هذا البطل بموته شبه المفاجئ، كان على أهبة الخروج بجيشه المظفر إلى حرب جديدة قيل أن وجهتها كانت إيطاليا، ليتم له فتحها، لكن المنية اعترضت هذه المرة هذا المجاهد النبيل، وأنهت

قصة حياة كانت البطولة بدايتها ونهايتها.

وكما بكاه شعبه التركى الذى أخلص له وتعلق به ومنحه الثقة كل الثقة، بكاه المسلمون فى جميع أقطار الأرض، وحزنوا لوفاته، فقد بهرتهم انتصاراته، وأعادت إليهم سيرة المجاهدين الأوائل من السلف الصالح. ولاشك أن الإسلام فقد بموته ركناً من أركانه الشداد وسيفاً من سيوفه المسلولة، وكفاه فخراً انه ترك وراءه دولة منيعة استمرت خمسة قرون وكانت درعاً للإسلام والمسلمين، وأكسب العثمانيين شهرة تتصف بالسماحة والعدل وحسن المعاملة فى الحرب والسلم فى كافة بلاد الدنيا، وأصبح بفضله كثير من سكان المعمورة يرون فى الجيوش الإسلامية العثمانية جيوش تحرير وانقاذ من الظلم والاستبداد، واستطاع أن يوجد جيشاً كان يعد فى أخريات أيامه من أقوى جيوش العالم، وأكملها تدريباً، وأحسنها تنظيماً، يتولى قيادته سلطان فى مقتبل الكهولة، واسع الدهاء، شديد الذكاء، عميق الحيلة، قوى الشكيمة، صلب الإرادة لا تلين له قناة، يتوقد غيرة على الإسلام ويسعى للجهاد فى سبيله ونصرة أهله.

ذلك كان شعور المسلمين تجاه وفاة السلطان محمد الفاتح، أما أوروبا فقد أقامت مظاهر الفرح والابتهاج بوفاته، وكان أشد الناس اغتباطاً فيها بطبيعة الحال «بابا روما» الذى كان يعد العدة للفرار من روما خوفاً على عرشه أن يسقط على يد العثمانيين، فلم يكد يبلغه نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح حتى أمر بفتح جميع الكنائس، وأقيمت فيها الصلوات والاحتفالات، وسارت المواكب

العامة تجوب الشوارع والطرقات وهى تتغنى بأناشيد النصر والفرح بين طلقات المدافع ودق أجراس الكنائس، ولم ينس البابا أن يأمر بإلغاء الاستعدادات التى أعدت لفراره، وظلت هذه الاحتفالات وتلك المهرجانات قائمة فى روما طيلة ثلاثة أيام، وأيقنت أوروبا كلها أنها تخلصت بوفاته من أعظم خطر كان يهددها.

ولم تطو صحيفة السلطان محمد الفاتح حتى بدأ الازدهار واضحاً فى العاصمة الإسلامية الجديدة «القسطنطينية» والتى أخذت اسماً إسلاميّاً هو «اسلام بول» أى «عاصمة الإسلام» والتى تحورت نتيجة النطق التركى لهذه الكلمة الجميلة إلى «استانبول» وسرعان ما انتهت إلى أن تكون مركزاً من أهم المراكز الثقافية فى العالم الإسلامى وقبلة لمعظم سكانه، وأصبحت عاصمة حقيقية لدولة هى أقوى دولة فى العالم فى عصرها، بعد أن كانت عاصمة لدولة منهارة مضمحلة، كان اسمها مقروناً باسم منشئها قسطنطين الأكبر أصبحت مقرونة الآن باسم وفاتحها السلطان محمد الفاتح (إنها استطنبول).

وإذا كنا فى هذا الكتاب قد عرضنا سيرة السلطان الفاتح بإيجاز، فهى على إيجازها سيرة عظيمة، على المسلمين أن يتعرفوا عليها، وينتفعوا بها، ويكبروا من شأن صاحبها، فهو عظيم ومن كملة الرجال، فإذا ذكرنا القادة العسكريين فهو فى زمرتهم، وإن جاء ذكر الأدباء والشعراء فهو صاحب ذوق أدبى رقيق وفن جميل، وان فتشنا عن أولئك النفر القليل جدّاً من الرجال الذين جمعوا كمال الرجولة ومظاهر العظمة وجدناه واحداً من هذا القليل، فرحمه الله رحمة واسعة، ونفع بسيرته المسلمين.

وصية السلطان محمد الفاتح

ترك السلطان «محمد الفاتح» قبل رحيله عن عالمنا وصية لابنه اعتبرها المؤرخون أصدق التعبير عن منهجه فى الحياة وقيمة ومبادئه التى آمن بها والتى يتمنى من خلفائه من بعده أن يسيروا عليها قال محمد الفاتح فى وصيته:

«ها أنذا أموت، ولكنى غير آسف لأنى تارك خلفاً مثلك، كن عادلاً صالحاً رحيماً، وأبسط على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلامى، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض، قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شىء، ولا تفتر فى المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ، ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش، وجانب البدع المفسدة، وباعد الذين يحرضونك عليها، وسع رقعة البلاد بالجهاد، واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد، إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام، واضمن للمعوزين قوتهم، وابذل إكرامك للمستحقين، وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة، فعظم جانبهم وشجعهم، وإذا سمعت بأحد منهم فى بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال..

.. حذار.. حذار.. حذار لا يغرنك المال ولا الجند، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك، وإياك أن تميل إلى أى عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.. خذ منى هذه العبرة، حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة، فأعطانى الله تعالى هذه النعم الجليلة فألزم مسلكى، وأحذ حذوى، وأعمل على

تعزيز هذا الدين وتوقير أهله، ولا تصرف أموال الدولة فى ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب البلاء.

وهكذا كانت وصية السلطان محمد الفاتح لابنه مُركزة على النقاط التالية:

1 - كن عادلاً صالحاً رحيماً

إنها أول ما أوصى به السلطان محمد الفتاح ابنه لأن محمد الفاتح كان عادلاً صالحاً رحيماً حتى مع غير المسلمين الذين أصبحوا من رعايا دولته وعندما دخل محمد الفاتح القسطنطينية فاتحاً كان يقول لكل جندى «لا تهتك حرمة، ولا تقتل صبيا ولا شيخا ولا امرأة، ولا تحرق زرعاً ولا تتلف ضرعاً ولا تُمثل بإنسان ولا تصيب إلا المقاتلين الذين يحملون السلاح فى وجه المسلمين».

وكان يردد دائماً بين جنوده تعاليم الصديق أبي بكر رضي الله عنه في معاملته للروم فكان يقول لجنوده «لا تخونوا، ولا تغلو، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم، وما فرغوا أنفسهم له.. واندفعوا باسم الله،...

2 - أبسط على رعيتك حمايتك ذون تمييز

إنها الوصية الثانية والتي كان يقوم بتنفيذها السلطان محمد الفاتح بنفسه حيث حرص على حماية كل رعايا دولته سواء من المسلمين أو غير المسلمين ومن القصص الطريفة التي سجلها

التاريخ للسلطان محمد الفاتح أنه كان على أهل جزيرة «خيوس» دين قدره أربعون ألف روقه لتاجر من تجار «غلطة» يُدعي «فرانسسكو درابيريو» ولما عجز هذا الدائن عن استرداد دينه من أهل الجزيرة رأي السلطان محمد الفاتح أن يقوم هو بهذا الأمر بوصف هذا التاجر من رعاياه الذين يجب على الدولة العثمانية حمايتهم واستيفاء حقوقهم، فأرسل إلى أهالى الجزيرة عدة رُسل بقيادة «حمزة باشا» مطالباً الأهالي بسداد ديونهم إلا أن الأهالي لم يستجيبوا بل قتلوا بعض الجنود الذين طالبوهم بسداد الدين، فلما علم السلطان محمد الفاتح بالأمر قال للتاجر «دار بيريو» أنا الذي سيتحمل دينك من أهل الجزيرة وسأطلب به مضاعفاً ثمناً لدم الجنود الذين قتلوا».

وسير السلطان محمد الفاتح إلى هذه الجزيرة أسطولاً حربيّاً وقام هو بنفسه بقيادة الجيوش إلى الجزر هناك ورسي أولا فى الجزر القريبة منها وفتح جزيرة «خيوس» هذه بغير حرب أو قتال كما دعا أهالى جزيرتا «ايمبروس، وساموتراسى» إلى الاستسلام وفتحتا أبوابهما للسلطان محمد الفاتح وقام أهالي جزيرة «خيوس» بدفع ما عليهم من دين للتاجر الجنوي «دار بيريو» كما دفعت للسلطان العثماني جزية سنوية قدرها ستة آلاف روقه كما دفعت مؤن ذلك تعويضاً على قتلهم للرسل الذين طالبوهم بالدين!!..

فهكذا! كان يبسط على رعيته الحماية.

3- اعمل على نشر الدين الإسلامي

فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض

إنها الجزء الثالث من الوصية فقد كان السلطان محمد الفاتح ذاته في كل حروبه وفتوحاته لا ينسى أنه داعية إلى الإسلام ولذلك كان يشجع قواده وجنوده على نشر الدين الإسلامي والعقيدة الصحيحة ويثني على القادة الذين تفتح المدن على أيديهم، فعندما أمر السلطان محمد الفاتح قائده «عمر بن طرخان» أن يزحف بجيشه إلى أثينا وفتحها وضمها إلى الدولة العثمانية وتحرك بالفعل القائد «عمر بن طرخان» بجيشه واضطرت المدينة إلى التسليم زار السلطان محمد الفاتح المدينة بعد عامين من فتحها ووجد الإسلام قد انتشر فيها انتشاراً عظيماً حينما قال «ما أعظم ما يدين به الإسلام لابن طرخان» لقد اهتم السلطان محمد الفاتح بالدعوة إلى الله وترك بصماته قوية وواضحة في مجال نشر الدعوة في أوروبا.

4- قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء

ولا تفتر في المواظبة عليه

إنها الفقرة الرابعة من وصية السلطان محمد الفاتح لابنه لأن الواقع يؤكد أن سلاطين الدولة العثمانية قبل زمن السلطان محمد الفاتح وبعده نشأوا نشأة إسلامية خالصة، مشوبة بإيمان عميق، متوجهة إلى أهداف عقائدية خالصة خاضوا من أجلها حروباً دينية شديدة، وكانت أجمل عبارة عند التنادي للجهاد هي الزحف

غازياً أوابا شهيداً، والغازي هو المجاهد في سبيل الله وكانت غاية السلطان محمد الفاتح هي الدفاع عن الإسلام ورفع رايته عند الأنام وهو ما أوصي به السلطان محمد الفاتح ابنه لذلك قام السلطان محمد الفاتح بصبغ دولته شعباً وسلطاناً وحكومة وجيشاً ثقافة وتشريعاً، نهجاً وضميراً، هدفاً ورسالة بصبغة إسلامية خالصة.

5- لا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش

إنها من أهم الوصايا التي يجب الاهتمام بها نعم على كل مسئول وولي أمر ألا يستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش فهؤلاء لا أمان لهم على الإطلاق، لذلك اهتم السلطان محمد الفاتح بإنشاء الجامعات لتخريج قادة للجيش والوظائف المهمة في الدولة وتم وضع منهج تربوي لإعداد هؤلاء القادة وخاصة داخل الجيش وحرص على أن يختار لمناصب الدولة الأمناء والأكفاء أصحاب العقول المنيرة والتقى وأسند إليهم الولايات وقيادة الجيوش ومناصب القضاة وباعد عنهم كل من لا يهتم بأمر الدين ويجتنب الكبائر والفواحش لذا أوصى السلطان محمد الفاتح ابنه بأن يسير على نفس نهجه في ذلك الأمر.

6- جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها

إنها الفقرة السادسة من الوصية التي أوصي السلطان محمد الفاتح بها ابنه لأن آل البدع المفسدة يكونون دائماً للسلطان بالرصاد وقد عرف السلطان محمد الفاتح خطورة البدع والاقتراب

من أصحابها، لذا كان دائماً يسير على نهج أهل السنة والجماعة ويكتفي بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة واجتهادات العلماء الراسخين بعيداً عن البدع المفسدة كل البُعد لذا أوصى ابنه بذلك.

7- وسع رقعة البلاد بالجهاد

في هذه الفقرة من الوصية يدعو السلطان محمد الفاتح ولده للجهاد في سبيل الله وتوسيع رقعة الدولة وبسط الأمن وقمع الأخطار التي تهدد بلاد المسلمين وذلك بتحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يستطيع الأعداء أن يظفروا بثغرة أو أن ينتهكوا حُرماً أو أن يسفكوا دماً مسلماً أو معاهداً لذا عمل السلطان محمد الفاتح على إعداد الأمة إعداداً جهاديّاً وقام بواجبه في جهاد الكفرة أعداء الإسلام حتى يسلموا أو يدخلوا في ذمة المسلمين لذا قام السلطان محمد الفاتح بصبغ مجتمعه بالصبغة الإسلامية الجهادية الدعوية وكان أفراد الجيش يعدون للحياة الجهادية الدعوية منذ نعومة أظفارهم إعداداً دقيقاً كاملاً لذلك حقق السلطان محمد الفاتح انتصارات رفيعة في الساحة الأوروبية ورفع الراية المحمدية على قلاع كثير من العواصم الكبرى في أوروبا وإخضاع كثير من الممالك والإمارات للحكومة الإسلامية حتى أوشكت جيوش المسلمين في شرق أوروبا وغربها أن تلتقي.

8- احرس أموال بيت المال من أن تتبدد

نصيحة غالية في وصية لا تصدر إلا من نبيل، فقد كان يرى أن الدولة هي الهيئة التنفيذية والمعبرة عن رأي الأمة والمكلفة بحماية

مصالحها، فمسئولية الدولة ليست خاصة بالأمن والدفاع فقط إنما مسئولة عن رعاية المصالح الاجتماعية وحماية بيت المال من الإسراف والتبذير والمحافظة على مصادر وموارد بيت المال لذلك كانت وصية السلطان محمد الفاتح لابنه في هذا الشأن واضحة كل الوضوح.

9- وإياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام

إنه المبدأ الذي يحترم خصوصية المال الخاص وعدم تأميمه أو مصادرته إلا بحق شرع الله فقد كان السلطان محمد الفاتح يؤكد على أن وظيفة الدولة تنفيذ أوامر الشريعة، والشريعة جاءت لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم، وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي وإن وظيفة الحاكم هي حماية أموال الرعية من السرقة أو النهب وهكذا أوصى السلطان محمد الفاتح ابنه محذراً وقائلاً إياك أن تمد يدك إلى مال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام.

10- واضمن للمعوزين قوتهم وابذل كرمك للمستحقين

إنها فقرة في الوصية تدعو للتكافل الاجتماعي بل إن السلطان ذاته يوصي ابنه بأنه عليه أن يضمن للمعوزين قوتهم وأن يبذل كرمه للمستحقين فقد كان السلطان محمد الفاتح ومن حوله كبار رجال الدولة والتجار والأثرياء يتسابقون في الإحسان للفقراء والمساكين وأبناء السبيل وكل من هو محتاج إلى البر والإحسان بل أوقف السلطان محمد الفاتح ووزراؤه أوقافاً عظيمة على طلاب العلم والفقراء والمساكين والأرامل وغيرهم، وكان هذا الوقف ركناً أساسيّاً

في اقتصاد الدولة وهكذا كانت سياسة السلطان محمد الفاتح هي أن يضمن للمعوزين قوتهم لذا أوصي ابنه بذلك بشكل واضح وقاطع.

11 - وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظم جانبهم وشجعهم وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال

إنه الجانب الذي كان يقوم به السلطان محمد الفاتح بنفسه طوال فترة حكمه إلى جانب أنه اهتم شخصيّاً بترتيب وظائف العلماء في الجوامع الكبري ووضع لها تقاليد راسخة ونظمها بمرسوم خاص بل وضع ونظم الوظائف في المساجد الكبري من الخطيب والإمام والقيم والمؤذن على أن يقوم المرشحون لأى من هذه الوظائف بطلب العلم في المدارس الدينية الكبرى كما كان الموظفون الدينيون يخضعون لسلطة المفتي مباشرةً وكان ينوب عنه في الولايات الكبرى قضاة العسكر اما في الولايات الصغري فكان الإمام يقوم بجميع المهام الدينية وخاصة في الأرياف لذلك حرص السلطان محمد الفاتح على أن يوصي ابنه برجال الدين والعلماء وأن يستقدمهم إليه ويكرمهم بماله.

12 - حذار.. حذار.. حذار

لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك وإياك أن تميل إلى أى عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا

إنها مجموعة من التحذيرات جاءت في نهاية الوصية تتضمن ما يلى:

1- التحذير من الغرور بسبب المال أو الجند.

2- التحذير من البُعد عن أهل الشريعة.

3- التحذير من الميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة.

ففي هذا السياق، يحذر السلطان محمد الفاتح وليه من بعده من أن يغتر بالمال أو الجند ويبين له خطورة إبعاد العلماء والفقهاء عن الحكم كما يحذره من أن يخالف شرع الله أو أحكام الشريعة لأن ذلك يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة، مؤكداً على أن آثار الابتعاد عن شرع الله وأحكامه تبدو واضحة وبسرعة على حياة الأمة وفي وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويؤكد السلطان محمد الفاتح في كلماته أن السر في قوة الإسلام والمسلمين وعزهم وشرفهم كامنة في طاعة الله وتنفيذ أحكامه والالتزام بشريعته والجهاد في سبيله والدعوة إليه.

13- اعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله

إنه الأمر الذي أتى به السلطان محمد الفاتح في نهاية وصيته لابنه مؤكداً أن تعزيز هذا الدين وإقامته في الأرض يحقق نتائج طيبة في حياة الأمة والدولة أهمها تهذيب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخير، لذلك كان الوازع الديني ثمرة من ثمار تعزيز هذا الدين ويكون مانعاً من ارتكاب الجريمة.

لقد أوصى السلطان محمد الفاتح ابنه بأن يعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله لأن تعزيز الدين وإقامة الشرع يحققان المساواة

بين الراعي والرعية في الحقوق والواجبات وينشران العدل في الدولة الإسلامية بجميع مشقاتها كما أنه في تطبيق الشريعة نزول البركة وتوالي الخير.

وتوقير أهل الدين ضرورة لأن الناس يحتاجون إلى العلماء الربانيين ليعلموهم دينهم ويربوا نفوسهم على طاعة الله لذلك لابد من احترامهم وتقديرهم وإكرامهم لأنهم الذين يبينون للناس حكم الله ورسوله وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية.

14- لا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكبر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك

نعم.. إنها دعوة للاعتدال في الإنفاق والتوسط في الاستهلاك وهي مطابقة تماماً لأمر الله ورسوله بالقصد والتوسط في الإنفاق والسلطان محمد الفاتح كان يرى دائماً وجوب ابتعاد الحاكم ودولته عن الإسراف لأن فيه معصية الله ورسوله، وهكذا كانت وصية السلطان محمد الفاتح لابنه إنما هي وصية تفيد كل حاكم من حكام المسلمين.

افتراءات بعد وفاته

قبل أن يدخل الأتراك العثمانيون في الإسلام، لم يكونوا موضع اهتمام جاد من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، فلم يرد ذكرهم إلا من خلال إشارات عابرة.

وحين دخل الأتراك العثمانيون في الإسلام التلبت المعورة وأصبحوا محط أنظار المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، بيد أن المؤرخين من غير المسلمين أبدوا اهتمامًا ملحوظًا بدراسة تاريخ الأتراك العثمانيين المسلمين.

ولأول وهلة يخيل للمرء أن اندفاع المؤرخين من غير المسلمين في دراسة تاريخ العثمانيين المسلمين بأمانة علمية منصفة، ولكن ما إن يطلع المرء علي ما أفرزته جهود المؤرخين من غير المسلمين من دراسات عن تاريخ العثمانيين المسلمين، حتي يكتشف أن الغالبية العظمي منهم قد تجاهلوا، وتناسوا مقتضيات الأمانة العلمية والإنصاف، بل أطلقوا العنان لأحقادهم الظاهرة والباطنة، لتكون هي المنطلق الذي ينطلقون من خلاله في تشويه تاريخ العثمانيين المسلمين وإلصاق عشرات الافتراءات التي لا تسندها أية بينات تاريخية بالأتراك العثمانيين المسلمين.

ولئن كنا لا نستغرب أن تصدر مثل تلك الافتراءات عن أقوام فضح الله عز وجل نواياهم تجاه الإسلام والمسلمين في قوله تعالي جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[آل عمران: 118].

ولئن كنا لا نستغرب أن يحمل الحقد الأسود أولئك المؤرخين علي تجاهل وتناسي أبسط قواعد مقتضيات الأمانة العلمية في عملية التاريخ للأتراك العثمانيين المسلمين، فإن الذي نستغربه أشد الاستغراب، بل ونستهجنه بشدة أن ينزلق الكثير من المؤرخين المسلمين، في حمأة عملية التزوير والتشويه والبهتان التي ألصقت بتاريخ العثمانيين المسلمين.

من ذلك مثلاً، تلك الفرية اللئيمة التي لا يكاد يخلو منها إلا النذر اليسير من الكتب التي تؤرخ للعثمانيين المسلمين، والتي تزعم أن السلاطين العثمانيين كانوا يملكون الحق، بموجب فتوي شرعية إسلامية، في قتل من يشاؤون من إخوانهم أو بني رحمهم، أو أقاربهم، بحجة الحفاظ علي وحدة المسلمين، ولقطع الطريق علي أية فتنة يمكن أن تبرز إذا حاول أحدهم المطالبة بالسلطة لنفسه.

وفي فرية باطلة، وبهتان عظيم، ذهب بعض المؤرخين، خاصة الغربيين، إلي القول بأن السلاطين العثمانيين الجدد اعتادوا عند توليهم مقاليد السلطة أن يقتلوا إخوانهم جميعاً، ليأمنوا محاولات

اغتصاب الملك، وأن هذه الظاهرة تكررت مرارًا في تاريخ الدولة العثمانية حتي شمل القتل الإخوة الأصاغر سنًا.

ولعل أخطر فرية خبيثة هي تلك التي أُلصقت بالسلطان محمد الفاتح، فقد درج بعض المؤرخين، وهم يؤرخون لحياته، علي الزعم بأنه قام بقتل أخيه الرضيع أحمد جلبي بعد أيام قليلة من تسلمه مسؤولية السلطنة بعد وفاة أبيه السلطان مراد، خشية أن يزاحمه علي السلطنة، ومن المؤسف أن هذا الزعم لم يقتصر علي المؤرخين غير المسلمين، وإنما وقع في أحبولته عدد من المؤرخين المسلمين.

ولئن كانت هذه الفرية التي ألصقت بالسلطان محمد الفاتح تكون أوهن من بيت العنكبوت، إلا أنني أجد من الواجب التوقف عندها وتفنيدها، لكي لا يبقي بعد ذلك عذر لأي مؤرخ يحترم نفسه، ويحترم شرف الكلمة التي يؤرخ بها، أن يستمر في ترديد هذا البهتان العظيم ضد السلطان محمد الفاتح.

هل يعقل أن سلطانًا ولي السلطنة فيَ عهد أبيه، وتحت كنفه، ثم وليها من بعد وفاة أبيه، وقد اشتدّ ساعده، ونضجت خبرته، والتفت الأمة من حوله تحوطه بالحب والطاعة، هل يعقل أن هذا السلطان يغار من أخ له رضيع، فيخشي أن ينازعه علي السلطة..؟ وكيف يتسنّي لطفل رضيع، وأني له، أن ينازع علي السلطنة، وهو الرضيع الذي إن تأخرت أمه عليه بالحليب يومًا مات جوعًا.

ثم هل يصدق إنسان عاقل، أن محمدًا الفاتح، الذي تربي علي

مائدة القرآن، علي يد خيرة علماء عصره، أمثال الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان الفاتح يسميه «أبا حنيفة زمانه»، والشيخ تمجيد أوغلو، والشيخ محمد جلبي زاده، والشيخ مولا إياش، والشيخ الغوراني، والشيخ سراج الدين الحلبي، والشيخ آق شمس الدين، يمكن أن يفكر بمثل هذا الأمر الفظيع..؟

بل لنفرض جدلاً أن محمدًا الفاتح كان يوجس خيفة أن ينازعه أخوه الرضيع علي السلطنة، أفما كان يستطيع أن يحتويه تحت كنفه، ويربيه علي الإخلاص له، بدل أن يقتله؟

ولماذا يستبق محمد الفاتح الأمور فيقتل أخاه الرضيع، وقد كان بإمكانه أن ينتظر وهو مطمئن البال بضعة عشر عامًا حتي يكبر أخوه، فيتحقق من نوازعه ونواياه؟

من هنا نستطيع أن نتبين انتفاء المصلحة الشخصية للسلطان محمد الفاتح من قتل أخيه الرضيع.

ولننتقل الآن إلي مناقشة الطريقة التي تمت بها عملية القتل المزعومة، فقد زعم مروّجو هذه الفرية أن السلطان محمدًا الفاتح أرسل أحد قواده، واسمه علي بك، إلي جناح النساء لقتل أخيه الرضيع، فلما علم علي بك أن الطفل موجود في حمام النساء حيث تقوم مربيته بغسله، اقتحم الحمام وأمسك بالطفل الرضيع وغطسه تحت الماء حتي مات مختنقًا غرقًا..

هل يصدق عاقل أن محمد الفاتح، وهو الذكي المحنك، يقدم

علي قتل أخيه الرضيع بهذه الصورة المكشوفة الساذجة؟ وهل كان عاجزًا عن تكليف إحدي النساء، كزوجته، أو إحدي خادماتها، بتنفيذ عملية القتل دون إثارة انتباه أحد، بدل من أن يرسل رجلاً إلي جناح النساء، وهو أمر غير مألوف، بله أن يسمح له بأن يقتحم هذا الرجل حمام النساء، وفي ذلك ما فيه من خروج مستهجن عن المألوف، من شأنه لو تحقق فعلاً أن يثير من هياج النساء، وضجيجهن، وصخبهن، ما يضطر ذلك الرجل إلي الفرار قبل أن ينفذ مأربه، مهما بلغت به الجرأة والنذالة؟

إذن، ما هي حقيقة هذه الفرية؟

الحقيقة أن المربية التي كان موكلاً إليها أمر العناية بالطفل الرضيع أحمد، انشغلت عنه لبعض شأنها بينما كانت تغسله، فوقع في حوض الماء، فمات مختنقًا غرقًا قبل أن تتداركه الأيدي التي امتدت لإنقاذه بعد فوات الأوان.

وتصادف بعد غرق الطفل بأيام قليلة أن أحد ضباط الجيش، واسمه علي بك، ارتكب جريمة عقابها الإعدام، فلما أعدم، وجد الحاقدون مادة جديدة خيّل إليهم أنها تدعم بهتانهم، فطفقوا يزعمون أن علي بك هو الذي أغرق الطفل الرضيع أحمد، وأن السلطان محمد الفاتح خشي أن يفشي هذا الرجل سره فقتله، ومن هنا جاءت الفرية علي النحو الذي أشرت إليه، وينبغي الإشارة إلي أن «إدوارد سي كريسي» يتبني هذا الزعم في كتابه «تاريخ

العثمانيين الأتراك» المطبوع بالإنجليزية في بيروت عام 1961م، ويدّعي أن السلطان الفاتح أقدم علي قتل الضابط علي بك متهمًا إياه بقتل أخيه الرضيع دون أن يكون للسلطان علم بذلك.

ولو أنهم توقفوا عند هذه الفرية وحدها لهان الأمر، ولكنهم ما برحوا أن بدأوا ينسجون من حولها المزيد من الافتراءات، فزعموا أن محمدًا الفاتح، لم يكتف بقتل أخيه، بل أصدر قانونًا أعطي للسلطان الحق في قتل من يشاء من إخوته وأبنائه وأبناء عمومته وخؤولته، لقطع الطريق علي أي منهم أن ينافسه علي السلطة.

ولقد أوضح المؤرخ التركي المعاصر إسماعيل حامي دنشمند في كتابه «موسوعة التاريخ العثماني» الدافع الذي جعل السلطان محمد الفاتح يصدر هذا القانون فقال:

«حين وجد السلطان محمد الفاتح أن أكبر خطر يهدد الدولة العثمانية في الفترة التي سبقت توليه مقاليد السلطنة، نجم عن تكرار حوادث الانشقاق التي كانت تقع بين الأمراء العثمانيين، والتي كانت تصل في أكثر الأحيان إلي درجة الاقتتال، وتؤدي إلي انقسام الدولة إلي فريقين أو أكثر، مما كان يؤثر علي وحدة الدولة، ويغري خصوم الإسلام بها، فقد رأي السلطان محمد الفاتح أن يضع قانونًا أسماه (قانون حفظ النظام للرعية) أكد بموجبه أن الموت سيكون مصير كل من يعلن العصيان المسلح ضد السلطان، ويتعاون مع أعداء الإسلام ضد المسلمين».

ويردف إسماعيل حامي دنشمند «أن هذا القانون كان سببًا في انحسار، أو على الأقل، في تقليص حوادث العصيان المسلح، التي كادت أن تصبح أمرًا شائعاً في الدولة العثمانية قبل صدور هذا القانون.

وإن المرء لتتملكه الدهشة، حين يرى أن كل دول الدنيا، قديمها وحديثها، لا تخلو قوانينها من مثل هذا القانون، ومع ذلك لا تجد أحدًا يعترض عليها أو يشوه مقاصدها، كما كان يفعل المغرضون تجاه الدولة العثمانية!

(10)

العرش بعد السلطان محمد الفاتح

وراثة عرش محمد الفاتح

بقيت مشكلة وراثة عرش السلطان محمد الفاتح من المشاكل التي رافقت الأسرة الحاكمة العثمانية، إذ ابتداء من السلطان محمد الثاني الملقب بالسلطان محمد الفاتح والذي قام بسلسلة من الإجراءات الإدارية كان في مقدمتها حسب ما يذكره غالبية المؤرخين قانون «نامه» وهي كلمة غير عربية ويعتقد أنها فارسية أو روسية وتعني «كتاب الشريعة» أو «كتاب القانون» في الاصطلاح العثماني وكان يعني بالمراسيم التي يصدرها السلطان العثمانى، ويحتوي على عبارات قانونية حول مواضيع معينة وكان السلطان محمد الفاتح هو أول سلطان عثماني ينشر القوانين المشرعة بشكل رسمي كما هو حال «الوقائع المصرية حالياً» ويبدو أن هناك مجموعتين من قوانين «نامه» تقترن باسم السلطان محمد الفاتح أحدهما خاص بإدارة شئون الدولة من الحكام والآخر خاص بالشئون العامة التي تخص الرعية ويقال إن قانون نامه، كان يجيز «قتل الإخوة» لمنع الصراع على السلطة أو تدبير المؤامرات ضد السلطان الموجود فعلاً في الحكم، ويقال إن السلطان محمد الفاتح نفسه أصدر الأوامر بقتل أخيه الرضيع «أحمد» وبإرجاع والدة الرضيع «زوجة والده» الأميرة مارا الصربية إلى والدها خوفاً من أن ينازعه «أخيه» الملك ويقال أيضاً إن السلطان محمد الفاتح

حينما خشي سخط الناس عليه لفق تهمه قتل أخيه الرضيع إلى أحد رجال دولته وهو على بك اورانوس وأمر بقتله لمن اقتص للأمير والمقتول، وواضح أن هذه الرواية بأكملها المقصود بها تشويه تاريخ السلطان محمد الفاتح والذي لم يثبت إطلاقاً قيامه بأى عمل يخالف شرع الله.

لم يكن قتل الإخوة عند تولي العرش معروفاً في العصور الإسلامية على الاطلاق ولكنه كان سائداً في أوروبا إذ ان الشريعة الإسلامية نهت تماماً عن قتل أى شخص دون سبب مهما كان ذلك الشخص كما أن الشريعة الإسلامية تعد القتل المتعمد من الكبائر، وقد حاول المؤرخون في الغرب بكل الطرق والوسائل إلصاق التهم والخطايا الكبري بالسلطان محمد الفاتح في محاولات مستميتة لتشويه تاريخه حتى إنهم ذكروا أن أولي الإشارات التي تجيز لسلاطين آل عثمان بقتل اخوتهم كان في القرن الخامس عشر الميلادي وتحديداً في عهد السلطان محمد الفاتح في البند الخاص بقتل الاخوة ضمن مجموعة «نامه» بل انهم أضافوا نصّاً لا وجود له في القانون يقول «وأى شخص يتولى السلطة من أولادي فمن المناسب أن يقتل الإخوة من أجل نظام العالم لأن وجود الإخوة في العوامل التي تثير الفتنة بين المسلمين» وواضح أن السلطان محمد الفاتح برجاحة عقله المعروفة لا يمكنه أبداً أن يقر مثل هذه الخزعبلات التي أقرها الفكر الغربي الكنسي في ذلك الوقت بل زاد هؤلاء المؤرخون قائلين بأن هذا القانون بما احتواه أقره أهل الفتوى وأعلنوا أنه لا يتعارض

مع أحكام الشريعة الإسلامية فأصبحت سنة عند سلاطين آل عثمان لاعتقادهم أن فيه سلامة الدنيا والعالم.

وهذا ما ذهب إليه مؤرخو الغرب في محاولة لتشويه صورة السلطان محمد الفاتح من جانب والدولة العثمانية بأكملها من جانب آخر.

والحقيقة أن مشكلة وراثة عرش السلطان محمد الفاتح استفحلت في أواخر أيام السلطان محمد الفاتح بعد وفاة ابنه البكر ولا سيما أن السلطان محمد الفاتح في حياته لم يقرر من سيخلفه وحتى الوصية لم يذكر لأى ابن من أبنائه صانع هذه الوصية، ما أدى إلى اختلاف ولداه «بايزيد، وجم» بشأن ولاية العهد، ولعل السبب يعود في الدرجة الأولى إلى رغبة كل منهما في الحصول على الحكم فضلاً عن وجود حالة الانقسام السياسي بين قادة الدولة وأعيانها والتي انقسمت إلى كتلتين، مثلت الكتلة الأولى ويشمل الطبقة الاستقراطية القديمة في حين مثل التكتل الآخر الطبقة الجديدة من «الدوشرمه» واللتان عملتا على دعم وتحريض الأميرين ولا سيما أن توجهاتها السياسية كانت متطابقة مع توجهات كلا الأميرين، فقد كان الأمير بايزيد راغباً في الإقلال من الحروب وكانت طبقة «الدوشرمه» متعبة من الحروب فوجدت الظهير والسند في هذا الأمير، في حين حصل الأمير «جم» على دعم ومساندة الطبقة الاستقراطية من العائلات التركية التي كان لها باع طويل في سياسة الدولة العثمانية فضلاً عن مكانتها الكبيرة.

وبعد وفاة السلطان محمد الفاتح جلس ابنه الأكبر بايزيد الثاني

على عرش الدولة العثمانية وكان ابان حكم والده السلطان محمد الفاتح حاكماً على «اماسيا» شرق أزمير، بينما كان أخوه «جم» حاكماً على «لواء قرمان» ولم تكن تولية «بايزيد الثانى» لعرش الدولة العثمانية سهلة، بل رافق ذلك صراع مرير وطويل مع أخيه الأصغر «جم» فقد بادر الصدر الأعظم «محمد باشا قرمان» إلى اخفاء نبأ وفاة السلطان محمد الفاتح لأطول فترة ممكنة وذلك لإخبار «جم» بخبر وفاة والده وتمكنه من الوصول إلى العاصمة لتسليم العرش قبل أن يتمكن بايزيد الثاني وأعوانه من السيطرة على مقاليد الحكم ومن جة أخرى يمنع حصول أى تمرد في صفوف القوات الانكشارية.

ومع كل هذه الإجراءات والتدابير لم يكتب لمساعي الوزير القرماني النجاح فسرعان ما انتشر خبر وفاة السلطان محمد الفاتح في معظم معسكرات الإنكشارية والذين قرروا إعلان التمرد والعصيان وثاروا على الصدر الأعظم وقتلوه مع عدد من أعوانه ونهبوا داره، ولم يكتفوا بذلك بل هاجموا بعض المحلات ومنازل الأثرياء ونهبوها ونصبوا في 4 مايو آيار 1481م كوركود ابن بايزيد الثاني سلطاناً لحين حضور والده.

ومما يتقدم لنا انه بعد وفاة السلطان محمد الفاتح بدأ بالفعل الصراع حول عرش السلطنة وهو ما أفسح المجال أمام كبار رجال الدولة والقوات العسكرية إلى التدخل في شؤون السلطنة، وفي تولية السلاطين الذين يتوافقون مع مصالحهم، فما أن وصل «بايزيد الثانى» إلى سواحل استانبول حتى تقدمت قوارب الانكشارية

وأحاطت بسفينته التي كانت تقله، وقبل أن ينزل «بايزيد الثانى» من مركبه تقدم كبير الانكشارية بطلب يقضي بإقالة أحد الوزراء ويدعي «مصطفي باشا» وتعيين «إسحاق باشا» مكانه، فاستجاب «بايزيد الثانى» لطلبهم، ولدي وصوله إلى السراي السلطانى»، تقدم كبير الانكشارية وطالبه بأمرين آخرين وهما «إصدار العفو العام عن كل الجرائم التي اقترفوها بحجة أن ذلك كان لمصلحة السلطان بايزيد الثاني نفسه، هذا فضلاً عن مطالبتهم له بإغداق الأموال عليهم تعبيراً عن سرورهم بتقليده الحكم، ولم يكن بوسع السلطان بايزيد الثاني إلا أن يستجيب لمطالبهم، فعفى عن جرائمهم، واغدق عليهم الأموال ثم جلس على عرش السلطنة في 21 مايو 1481م.

أما الأمير «جم» فقد فرصته في الحصول على الحكم ولم يعلم بنبأ وفاة والده إلا بعد أربعة أيام من ذلك لذا أعلن تمرده وحاول بكل الوسائل كسب مؤيدين له، كي يتسنى له بعد ذلك الوصول إلى عرش السلطنة ولو على حساب وحدة الدولة، لذلك أعلن نفسه سلطاناً على عرش الأناضول عام 1481م، وأمر بذكر اسمه في خطبة الجمعة وضرب اسمه على النقود، واتخذ من مدينة «بورصة» مقرّاً له بعد أن تغلب على الانكشارية الموجودين فيها، والتف حوله عدد كبير من أتباعه.

وهكذا أصبح للدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمد الفاتح سلطان في وقت واحد، بايزيد الثاني في اسطنبول، وجم في «بورصة» وقد بعث «جم» إلى أخيه بايزيد الثاني يطلب منه الصلح

ويعرض عليه اقتسام الدولة إلى شطرين، الآسيوي ويكون من نصيب «جم»، والأوروبي يكون لبايزيد الثانى، وقد جاء عرض «جم» هذا بعد أن علم بتقدم قوات السلطان بايزيد الثاني باتجاه «بورصة».

حاول «جم» مرة أخري أن يجد حلا للأزمة القائمة بينه وبين أخيه وذلك من خلال تكليف عمتهم «سلجوق خاتون» والتي باتت تحظى باحترام العائلة المالكة بأن تترأس هيئة كبار العلماء وذلك في 14 أغسطس 1481م حقناً للدماء!!.

والتقت بالفعل «سلجوق خاتون» بالسلطان بايزيد الثاني في معسكره وطلبت منه أن يقبل بعرض أخيه تجنباً للحرب بين الأخوين وحقناً لدماء المسلمين، غير أن بايزيد الثاني رفض مقترحات الوفد رغم تقديره العالي لعمته وللعلماء مبيناً لهم أنه لا أرحام بين الملوك.

ولم يبق أمام الأخوين سوى الخيار العسكري فزحف «بايزيد الثانى» باتجاه أخيه «جم» ودارت معركة بينهما في منطقة «يكن شهر» في الأناضول وذلك في 20 أغسطس 1481م وانتهت المعركة بهزيمة «جم» وفراره جريحاً إلى «قرمان» ثم «قونيه» التي وصلها في 25 أغسطس 1481م وبعد ثلاثة أيام قرر ترك مدينة «قونيه» بعد أن علم باتجاه قوات بايزيد الثاني لها، وكانت المدينة أضعف من أن تواجه تلك القوات.

أقام الأمير «جم» في مدينة «ادنـه» التي كانت تابعة للدولة المملوكية في مصر، وخلال اقامته فيها اتصل بالسلطان المملوكي «الأشرف قايتباى» وطلب منه السماح له بدخول مدينة حلب، فوافق

الأخير على طلبه واستدعاه إلى القاهرة بشرط اصطحاب عدد قليل من جنوده معه.

وعلي ما يبدو فإن السلطان المملوكي «الأشرف قايتباى» وجد مسألة تقديم العون والمساعدة للأمير جم وسيلة للضغط على السلطان بايزيد الثانى، لذا أمر السلطان المملوكي بتنظيم احتفال كبير لاستقبال الأمير «جم» خرج فيه الوزراء والأمراء ودخل «جم» في موكب مهيب وخصص له قصراً لاقامته هو وأسرته.

قرر السلطان بايزيد الثاني سحب قواته إلى العاصمة إسطنبول بعد أن وصلت إليه أخبار وصول أخيه «جم» إلى القاهرة، غير أن القوات الإنكشارية حاولت استغلال هذا الصراع ما بين الأخوين إذ طلب قائدهم من السلطان بايزيد الثاني أن يأذن لهم بنهب مدينة «بروسه» أو «بورصة» بحجة الانتقام من أهلها لموقفهم المؤيد للأمير «جم» ولكن السلطان بايزيد الثاني لم يقبل ذلك، عندما عزم الإنكشارية على التمرد لذا اضطر السلطان بايزيد الثاني أن يمنح كل فرد منهم مبلغاً من المال فاستجابوا لذلك ونجت مدينة «بورصة» من الخراب.

ومكث الأمير «جم» في القاهرة «أربعة أشهر» ثم قصد بعد ذلك إلى الأراضي المقدسة وذلك لأداء فريضة الحج من جهة وللحصول على الدعم والاعتراف بأحقيته في الحكم من قبل أشراف مكة والحجاز لما لهم من المكانة والهيبة في العالم الإسلامي ولما عاد الأمير «جم» إلى مصر بعث إليه أخوه السلطان «بايزيد الثانى»

برسالة جاء فيها: «بما انك اليوم قمت بواجباتك الدينية في الحج فلماذا تسعى إلى الأمور الدنيوية، من حيث المُلك كان من نصيبي بأمر الله، فلماذا تقاوم إرادة الله».. ورد عليه الأمير «جم» قائلاً: «هل بين العدل أن تضطجع على مهد الراحة والنعيم وتقضي أيامك بالرغد واللذات وأنا أحرم من اللذة والراحة واضع رأسي على الشوك طلب الأمير «جم» من السلطان المملوكي قايتباي أن يأذن له بالعودة ومقاتلة أخيه السلطان بايزيد الثانى، فأذن له السلطان المملوكي بذلك وزوده بالقوات والأموال فوصل الأمير «جم» حلب في 6 مايو 1482م وبعد أن جمع أعوانه سار «جم» لمحاصرة «قونيه»، غير أن قوات السلطان بايزيد الثاني تمكنت من التصدي ومني «جم» بهزيمة أخرى بالقرب من أنقرة، وبعد أن ضاقت به السُّبل وصل إلى جزيرة رودس في 20 يوليو من العام نفسه 1482م وكانت هذه الجزيرة تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا الأورشليمى، وخلال فترة إقامته في رودس أرسل السلطان بايزيد الثاني وفداً إلى رئيس الفرسان يحمل عرضاً يقضي بإبقاء الأمير «جم» لديه، كما طلب منه إبعاده عن جزيرة رودس لكونها قريبة من حدود الدولة العثمانية ومقابل ذلك تعهد السلطان بايزيد الثاني بدفع مبلغ من المال سنويّاً مقداره 45000 ليرة/ دوكا ذهبية وبعدم التعرض لجزيرة رودس طيلة حياته فقبلوا بذلك وأوفوا بعهدهم للسلطان العثماني حتى انهم لم يقبلوا تسليم الأمير «جم» إلى ملك المجر أو امبراطور ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه ليستعملاه أداة لاضعاف الدولة

العثمانية، بل أرسله رئيس الرهينة إلى فرنسا ووضعه في مدينة «نيس» ثم «شمبرى» وبقي ينقله من بلدة إلى أخرى سبعة أعوام كي لا يطاله أذى، وفي عام 1489م سلمه رئيس الرهينة إلى البابا «أنوسان الثامن» الذي اتصل به بايزيد الثاني طالباً منه ابقاء الأمير «جم» عنده مقابل أن يدفع له ما كان يدفعه لفرسان القديس يوحنا.

وفي هذه الأثناء حاصر ملك فرنسا «شارل الثامن» إيطاليا وطلب من البابا أن يسلمه الأمير «جم» ليستخدمه أداة ضغط على الدولة العثمانية فسلمه إليه إلا أن الروايات التاريخية تذكر بأنه قد دس له السم قبل تسليمه للقوات الفرنسية وقد توفى الأمير «جم» ابن السلطان محمد الفاتح أثناء مصاحبته للقوات الفرنسية في مدينة نابولي الإيطالية في 14 فبراير شباط عام 1495م بعد أن قضى ثلاثة عشر عاماً في حالة أشبه بالأسير خارج بلاده.

ويمكن القول إنه طيلة فترة الصراع بين الأخوين أبناء السلطان محمد الفاتح تعرض السلطان بايزيد الثاني إلى الكثير من الابتزاز، هذا فضلاً عما أنفقة من الأموال التي حملت الخزينة العثمانية أعباء مالية ثقيلة بلغت أكثر من ستمائة ألف قطعة ذهبية كانت تنفق على حجز الأمير «جم» هذه الأمور مجتمعة قد أضعفت بشكل كبير نظام حكم بايزيد الثاني حتى عهده لم يشهد أى حروب أو فتوحات بل كان أغلبها على التخوم لصد هجمات المعتدين.

وهكذا انقلب الوضع في الدولة العثمانية رأساً على عقب بعد وفاة السلطان محمد الفاتح.

قالوا عن محمد الفاتح

قال عن وفاة محمد الفاتح المؤرخ عبدالحي بن العماد الحنبلي في وفيات سنة ست وثمانين وثمانمائة من الهجرة..

فيها كانت وفاة السلطان محمد الفاتح وكان من أعظم سلاطين ابن عثمان وهو الملك الفاضل النبيل العظيم الجليل، أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداماً واجتهاداً، وأثبتهم جأشاً وفؤادًا. وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً، وهو الذي أسس ملك بني عثمان، وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجيادالزمان، وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى وساق إليها السفن تجري رخاء براً وبحراً وهجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله، وحاصرها خمسين يوماً أشد الحصار، وضيق على مَنْ فيها من الكبار الفجار، وسل على أهلها سيف الله المسلول، وتدرع بدرع الله الحصين المسبول ودق باب النصر والتأييد، وثبت على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج القريب، ونزلت عليه ملائكة الله الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالي والفتح القريب، ففتح استنبول في اليوم الحادي والخمسين

من أيام محاصرته وهو يوم الأربعاء العشرون في جمادي الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وصلى في أكبر كنائس النصاري صلاة الجمعة وهي آيا صوفيا وهي قبة تسامي قبة السماء وتحاكي في الاستحكام قبب الأهرام، وقد أسس في استنبول العلم أساساً راسخاً لا يخشى على شمسه الأفول وبني مدارس كالجلفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وقنن بها قوانين تطالب المعقول والمنقول، فجزاه الله خيراً عن الطلاب ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب، كما أنه رحمة الله تعالي عليه استجلب العلماء الكبار من أقاصي الديار وأنعم إليهم وعطف بإحسانه إليهم كمولانا «علي القوشجى، والفاضل الطوسى»، و«العالم الكورانى» وغيرهم من علماء الإسلام وفضلاء الأنام فصارت استنبول بهم أم الدنيا ومعدن الفخار.

من أقوال محمد الفاتح

❖ أفضل دائمًا أن أتصور أنني سميت محمدًا محبة لرسول الله ﷺ وليس تشبها بجدي محمد الأول.. ولدت في 26 رجب سنة 833 هـ ونشأت في هذا القصر الكبير أميرًا.. ابن ملك.. حفيد ملوك.. وأنا ولي العهد.. لا تفزعوا من ذلك فأنا أشعر أنها مسؤولية وتكليف.

***

❖ بين الزهور الكثيرة والأشجار العجوز كنت أقضي أغلب وقت فراغ طفولتي.. نعم.. فراغ.. فلقد كان أبي رحمه الله يدربني ويعلمني فنون القتال، وتفاريع الحكم والسياسة.. ولا يدع لي إلا القليل لنفسي أقضيه في طبيعة حدائق القصر الجميلة.. فأحببت الشعر والموسيقي.

***

❖ كنت أجلس أتأمل السماء والأرض وصوت معلمي الشيخ (آق شمس الدين) يرن في أذني: نعم الأمير أميرها.. أنت هذا الأمير يا ولدي.. أنت هو ما الذي رآه في حتي يتصورني صاحب نبوءة الرسول.. لست أدري ولكني أيقنت أنه إن لم أكن أنا فلابد أن أكون هو.

***

❖ مازلت أذكر دروس اللغات والشعر والقتال والمبارزة وركوب الخيل.

***

❖ القسطنطينية من أيام معاوية بن أبي سفيان ومحاولات فتحها المستمرة تتحطم.. فهل سيكون الفتح علي يدي؟

***

❖ أعشق امتطاء صهوة جوادي ولست أدري متي كانت أول مرة ولكن أذكر الخوف من هذا الظهر العالي الذي وضعني أبي عليه فظللت متعلقا به ولكنه انتزع ذراعي برفق من أكتافه وأمسكهما بشيء.. كان اللجام.. وبدأ الشيء الكبير يتحرك وأنا خائف أنظر حولي وأبكي وظل صوت أبي ومدربي يدويان: انظر أمامك وارفع رأسك.. فعلتها!! وبدأت أحب إحساس السيطرة.. والقيادة.. والتحكم في الفرس.. أنبل الحيوانات.

***

❖ عند العاشرة كنت فارسًا لا يشق له غبار أمتطي جوادي يوميًا عند الغروب لأدور حول المدينة وأدخل به في البحر.. البوسفور.. وأظل أركض في اتجاه القسطنطينية حتي أكاد أغرق أنا وجوادي.. فأعود.

***

❖ اعتدت طريقي في الماء وأحببته.. وعيني وقلبي علي الشاطئ

الآخر العالي.. يوما ما سأصل حتي الشاطئ الآخر وأستلقي علي رماله يأكل فرسي من حشائشه ويهز ذيله الكبير حول رأسي.

***

❖ حين بلغت التاسعة عشرة ولأني أبي إمارة مغنسيا لأتدرب علي شؤون الحكم والسياسة وكان أستاذي ومعلمي معي آق شمس الدين والملا كوراني كانت حياتي قاسية نظرًا إنها لأمير.. وأي أمير.. وريث أكبر وأرقي إمبراطورية علي وجه الأرض.. الخلافة الإسلامية.. كنت أطوف الشوارع محاولا التأسي بسيدنا عمر بن الخطاب لأقف علي حال الناس.. ونداء أبي ارفع رأسك وانظر دائما أمامك.. لم يعد تدريبا للفروسية بل شعار حياة.. أحوال كثيرة دونتها.. وأشخاص اختبرتهم وتقنيات اكتشفتها.. ولما توليت الحكم سلطانًا. فوجئ الشعب بقدرات ابن الواحد والعشرين سنة فحدثت كل شيء: دواوين الإدارة.. المدارس.. الجيش.. الأسلحة.. فرضت تعلم القرآن والعربية.. ولم يكن يتولي عندي إلا المعروف بصلاحه وتقواه.. كانت تداخلني كلمات سيدنا عمر إنما ننتصر عليهم بالتقوي فلنكن إذن أول المتقين.

***

❖ ما سمعت عن عالم أو شاعر أو كل محترف في أي مجال إلا واستدعيته للأستانة وأجزلت له لنستفيد من اقتداره.

***

❖ الكفاءة وحدها كانت مؤهل العاملين.. وبنيت كبر مدفع في

العالم وأكثرت من المدافع ومن السفن الخفيفة.

***

❖ ومازلت كما كنت صغيرًا أنـزل إلي الماء بفرسي في انتظار الوصول لغايتي.. فانغرست الفكرة في قلوب جنودي وأمرائي.. كان الجميع يعمل لهدف واحد.. أن نحظي بشرف كوننا نعم الأمير ونعم الجنود.

❖ وبنيت قلعة علي مضيق البوسفور لأمنع وصول المدد من طربوزان إلي القسطنطينية ثم حاصرتها من كل الجهات ولكن ظل البحر مشكلتي.. سلسلة عملاقة تقطع طريق السفن تنتصب فجأة في عرض الماء كسد منيع تتكسر عليه القلاع والأشرعة.

***

❖ وظللت أحاصرها من كل اتجاه ورفضت كل محاولات الحلول غير دخولها وفتحها وكل ما يقلقني هو هذه السلسلة الغبية التي تنتصب قاطعة علينا الطريق.. ويبدو أن الله قد قبل سعيي واجتهادي فوجدتني أعثر مصادفة أثناء حصاري علي قبر سيدي أبي أيوب الأنصاري.

***

❖ هل يتصور أحد سعادة سلطان البلاد باكتشاف مقبرة.. لن يفهم إلا من يعرف معني أن يجد فجأة بين يديه موضع وضع فيه أحد صحابة رسول الله قدمه.. بل ووضع فيه جسده وليس أي صحابي إنه ذلك المضيف الذي استقبل نبينا الكريم صلوات الله عليه

وسلامه في بيته حين دخل المدينة.. وكأنها البشري إنني أيضا سأكون ضيفه لحين دخول المدينة وبنيت عند قبره مسجدًا.. وصارت صلواتي وعباداتي كلها في هذه البقعة الطاهرة..

❖ و.. وأتي النقاء بثماره.. لمعت في رأسي فكرة قد تبدو مجنونة ولكنها عبقرية ماذا أفعل إذا وقف سدّا في الطريق؟.. وعجزت عن هدمه وتخطيه؟.. الإجابة سهلة وبسيطة «تلف من حوله» نعم.. للتاريخ أن يتصور قادتي وأمرائي وقد فغروا أفواههم حين سمعوا بالخطة.. ثم ضحكات السعادة بالعثور علي حل بسيط ولكنه داهية..

***

❖ بدأت مراحل التنفيذ وتم تمهيد التلال ووضع قضبان خشبية مدهونة بالشحم عليها ثم جررنا السفن عبر التلال لنهبط بعد مستوي السلسلة.. تمَّ كل هذا في ليلة واحدة.. ألم أقل لكم إنَّ جنودي عايشوا معي الحلم.. أن نكون المعنيين بالحديث.

***

❖ وانتهت القصة هنا لقد فتحت القسطنطينية.. وصليت في (آيا صوفيا) وانقلبت أكبر كنائسها إلي أرع مساجدها..

❖ ولكنِّي ظللت أحب الصلاة في مسجد أبي أيوب أتمسح بأعتاب الصحابة تبلل دموعي لحيتي وأنا أرسل الصلاة والسلام للمصطفي الهادي ممن حظي بشرف أن يأتي ذكره علي لسانه الشريف قبل أن يري النور.. وبشر به وأنعم عليه بالرضا من الله.. عسي الله أن يقبل صالح أعمالي ويتجاوز عن خاطئ اجتهادي.

المراجــع

أولاً: المراجع العربية المنقول عنها الكتاب

1- ابن اياس، محمد بن أحمد

بدائع الزهور في وقائع الدهور، المطبعة الأميرية ببولاق. القاهرة سنة 1311هـ.

2- ابن تغري بَردى، أبوالمحاسن يوسف

- حوادث الدهور في مدي الأيام والشهور، طبعة كاليفورنيا، 1930-1932م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (الأجزاء من 12 - 4)، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة 1932-1956م.

3- ابن العماد، أبوالفلاح عبدالحي (المتوفي سنة 1089هـ - 1679م).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مطبعة القدسي القاهرة سنة 1351هـ.

4- دكتور أحمد السعيد سليمان

تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، تأليف ستانلي لين

بول سنة 1893، وترجمه إلى الروسية بارتولد عام 1899، ثم نقله إلى التركية خليل أدهم عام 1927م. وأكمله الأستاذ الدكتور أحمد السعيد سليمان حتى وقت تعريبه الكتاب، جزء أول سنة 1971، جزء ثاني سنة 1972، دار المعارف بمصر، القاهرة سنة 1972.

5- أرنولد، السير توماس

الدعوة إلى الإسلام، نشر مكتبة النهضة المصرية، نقله من الإنجليزية إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين وإسماعيل النحراوى، القاهرة سنة 1957.

6- بارتولد

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان وراجعه الأستاذ إبراهيم صبرى، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة 1958.

7- بينز، نورمان

الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، تقديم محمد مصطفى زيادة، القاهرة سنة 1957.

8- محمد فؤاد كوبريلى

قيام الدولة العثمانية، ترجمة الدكتور أحمد السعيد سليمان وتقديم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة سنة 1967م.

9- مجلة حضارة الإسلام، دمشق، السنة الثالثة 1382هـ، العدد التاسع.

ثانياً - المراجع الفارسية والتركية المأخوذ منها الكتاب

1- ابن بيبى، ناصر الدين يحيي بن محمد

الأوامر العلائية المعروف باسم «تاريخ ابن بيبى»، تحقيق نجاتي لوغال وعدنان صادق أرزى، أنقرة سنة 1956م.

2- أحمد مختار باشا

فتح جليل قسطنطينية، استانبول سنة 1316هـ.

3- خير الله أفندى

تاريخ دولت علية عثمانية، قسطنطينية سنة 1281هـ.

4- الراوندى، نجم الدين أبوبكر محمد بن على بن سليمان: راحة الصدور وآية السرور، تصحيح محمد إقبال آشتياني، طبع ليدن، سنة 1921م.

5- سعدالدين أفندى، خواجه

تاريخ التواريخ، إستانبول سنة 1879م.

6- شمس الدين سامى

قاموس الأعلام، إستانبول سنة 1314هـ.

7- صولان زاده تاريخى، استانبول سنة 1297هـ.

8- عاشق باشا زاده تاريخى، استانبول سنة 1332هـ.

9- على بن ملوك منشى

ظفر نامه دربيان فتوحات السلطان محمد بهادر خان بن مراد خان «سلطان محمد دوم»، طهران بدون تاريخ.

10- فريدون بك

مجموعة منشآت السلاطين، قسطنطينية سنة 1274هـ.

11- دكتور فريدون نافذ أوزلق

تاريخ آل سلجوق در آناطولى، لمؤلف مجهول، صححه وقدم له الدكتور فريدون نافذ أوزلق ونشرته «أنجمن تاريخ إسلام»، أنقرة سنة 1952م.

12- كريم آق سرابى، محمود بن محمد

مسامرة الأخبار ومسايرة الأخيار، تحقيق عثمان توران. أنقرة سنة 1943م.

13- سعيد نفيسى

تاريخ تركية، وهو كتاب فرنسي ألفه العقيد لاموش وقدم له المستشرق الفرنسي رينيه بينون وترجمه وعلق عليه المرحوم سعيد نفيسى، نشر كمسيون معارف دار إيران، الطبعة الأولى، مطبعة المجلس، طهران سنة 1316 هـ.ش.

14- مشكور، دكتور محمد جواد

أخبار سلاحقة الروم «متن كامل سلجو قنامه ابن بي بى»، وهو إعادة طبع وتحقيق المختصر الذي أخرجه المستشرق هوتسما «M.Th. Hositsma» في سنة 1902، وأخرجه باسم «مختصر سلجو قنامه». وقد حقق الدكتور محمد جواد مشكور المختصر وأضاف إليه حواشي وتعليقات مهمة وقدم له في عشرين صفحة، نشر مكتبة مشمع جي تبريزى، تبريز سنة 1352 هجرية شمسية.

15- نيشابورى، خواجه ظهير الدين

سلجو قنامه، وبذيله كتاب «ذيلي بر سلجو قنامه» لابي حامد محمد بن إبراهيم وهو تتمة للكتاب الأول، تحقيق إسماعيل افشار، نشر مكتبة ابن سينا، طهران سنة 1332 هجرية شمسية

فهرس المحتويات